**فقــــــه اللغة وعلم اللغــــــــة**

شاع في الدّراسات اللّغويّة الـحديثة مصطلحان هـما: (علم اللّغة) و (فقه اللّغة)، فاسم علــــم اللّغة عند الغربيين (Linguistic)، أي: العلم الـمختصّ بالكلام أو اللّغة، واسم فقه اللّغة عندهـم هـــــــو: (Philology)، ويعنــــي لفظ Philo) (: الصّديق، و(Logos): الـخطبة أو الكلام، فكأنّ واضع التّسمية لاحظ أنّ فقه اللّغة يقوم على حبّ الكلام للتّعمّق فــــي دراسته من حيث قواعده وأصوله وتواريـخه. وكان اللّغويّون العرب القدامى قــــد صنّفوا فـــــي فقـــه اللّغــة العربيّة، واتّسمت مصنفاتـهم بالدّقة والاستيعاب لـخصائص العربيّة وموادّها وموضوعاتـها.

**وانقسمت مصنّفات القدامى فـي فقه اللّغة العربيّة على قسمين:**

قســــــم يضم مـجموعة مِـن مباحث فقه اللّغــة فـــي كتاب، وآخر يتناول مبحثًا واحدًا فحسـب. ولعلّ لفظة (فقه اللّغة) كانت شائعة في مؤلّفات العلماء في القرنين الرّابع والـخامس للهجرة، فأوّل ظهور لـمصطلح فقه اللّغة كان عند أحمد بن فارس -المتوفّى سنة395للهجرة- فـــــــــي كتابـه: (الصّاحبيّ في فقه اللّغة وسنن العرب فــــــي كلامها)**،** أهداه إلـــــــــــــــــى تلميذه اللّغوي الأديب الصّاحب بن عبّاد -المتوفّى سنة385للهجرة-**؛** لذلك سمّاه الصّاحبيّ**،** وقــد ضمّنه كثيرًا مـن موضوعات فقــه اللّغة مثل: نشـــأة اللّغة العربية، ولهجات العــــــرب،وخصائص العربيّة، والقياس، والاشتقاق، وأثر الإسلام في اللّغة، مشيرًا إلى الـمعنى اللّغويّ والشّرعيّ، فضلًا عن موضوعات أُخرى كالـمترادف، وحروف الـهجاء، وحروف الـمعاني**.**

وقد ضمّن ابن فارس كتابه الصّاحبيّ نظريته التي ابتدعها في النّحت، فهو يرى أنّ الألفاظ التي تزيد حروفها على ثلاثة أكثرها منحوت مِن لفظين، فـ(الصِّلْدم)**،** أي: الشّديد الـحافر من الـحيوان، مأخوذ في رأيه من (الصَّلْد) و (الصَّدْم).

ثم ظهر مصطلح فقه اللّغة عندأبي منصور الثّعالبيّ -المتوفّى سنة429 للهجرة- فـــــــــي كتابه (فقه اللّغة وسرّ العربية)، وليس الكتاب كلّه في فقه اللّغة، بل القسم الثّاني منه فحسب، وهو الذي سـمّاه (سرّ العربية). أمّا القسم الأوّل منه فهو معجم للمعاني، يبيّن فيه معنى عامًا، ثـم يذكر تـحته ما يتعلّق به من مفردات اللّغة. وعُني القسم الثّاني مِن الكتاب بفقه اللّغة وقضايا بلاغيـة ونـحويـة، فمِــــن مباحثه اللّغوية الـمتّصلة بفقــــه اللغــــة كلامــه علــــى الإبـــــدال، والقلب الـمكانيّ، والأضــــداد، والنّــــحت، والإتبــاع، والـمشــترك اللّفظـــيّ الـــذي سـمّــــاه (وقوع اسم واحد على أشياء مختلفة).

وثـمّة كتب تضمّنت مباحث فــــي فقه اللغة، أو عالـجت شيئًا منه لكنّ عنوانـها خلا من مصطلح فقه اللغة، ككتاب الـخصائصلابن جني -المتوفّى سنة392للهجرة- فمـن مباحث فقه اللغة فيه: القول على اللّغة وما هي، والقول علــى أصل اللغة أإلـهام هي أم اصطلاح؟ وما قِيس علــــــى كلام العرب، والفصيح يـجتمع فــــي كلامه لغتان فصاعدًا، وما يرد عن العربـيّ مـخالفــــًا لـما عليــــه الـجمهور، وتــداخل اللّغات، واختلاف اللّغات، والاشتقاق الأكبــر، ومطل الـحركات، ومطل الـحروف، وحذف الـهمزة وإبدالـها، وغير ذلك.

ويعدّ كتاب (الـمخصّص) لابن سيده الأندلسيّ -المتوفّى سنة458للهجرة-، وهو معجم من معجمات الـمعاني من الكتب التي تضمّنت بـحوثًا في فقه اللّغة كالاشتراك، والتّرادف، والاشتقاق، والتّعريب، والإتباع اللّفظيّ، والقصر والـمدّ، وغير ذلك.

وتناول كتاب (الـمزهر في علوم اللّغة وأنواعها ) لـجلال الدّين السّيوطيّ -المتوفى سنة911 للهجرة- مباحث كثيرة في فقه اللّغة، نذكر منها: نشأة اللّغة، والغريب، والـحوشي، ولغات العرب، والـمستعمل والـمهمل من كلامهم، وتداخل اللّغات وتوافقها، والـمعرّب والدّخيل ، والإبـــدال، والاشـــتقاق، والـمشــترك، والتّرادف، والأضداد، والإتباع، والقلب الـمكانيّ**.**

وتوجــد غيــــر الـخصائص والـمخصّص والـمزهر كتب كثيرة تضمّنت مباحث فــي فقــه اللّغة.

خلاصة القول أنّ أبرز الكتب التي عنيت بفقه اللّغة هذه الـخمسة، اثنان منها حـمل مصطلح فقه اللّغة، وهـما الصّاحبيّ لابن فارس وفقه اللّغة وسرّ العربيّة للثّعالبيّ، وثلاثة لـم تـحمل مصطلح فقه اللّغة، وهي الـخصائص لابن جنّي، والـمخصّص لابن سيده، والـمزهر للسّيوطيّ.

وأمّا الكتب القديـمة التي اختصّت ببحث واحد من مباحث فقه اللّغة فهي كثيرة جدًّا، سنذكر أمثلة لـها دون استقصائها:

فمــن الكتب التــي عُنِيت بالألفاظ الإسلاميّة كتـــــــــاب (الزِّينة في الألفاظ الإسلاميّة العربيّة)لأبـي حاتـم الرّازيّ -المتوفّى سنة322للهجرة-.

ومِـــن كتب الـمشترك اللّفظيّ كتاب (الأجناس من كلام العرب وما اشتبه في الألفاظ واختلف في الـمعنى) لأبي عبيد القاسم بن سلّام -المتوفّى سنة224للهجرة-، وكتاب (ما اتّفق لفظه واختلف معناه) لإبراهيم اليزيديّ -المتوفّى سنة225للهجرة-، وكتاب (ما اتّفق لفظه واختلف معناه) لأبي العميثل -المتوفّى سنة240للهجرة-، وكتاب (ما اتّفق لفظه واختلف معناه من القرآن الـمجيد) للمبرد -المتوفّى سنة285للهجرة-، وكتاب(الـمنجَّد في اللّغة) لكُراع النَّمل الـهُنائيّ –الـمتوفّى سنة310للهجرة-.

ومن كتب الأضداد كتاب (الأضداد) لقُطْرُب –الـمتوفّى سنة206للهجرة-، وكتاب (الأضداد) للأصمعيّ -المتوفّى سنة216للهجرة-، وكتاب (الأضداد) للتَّوّزيّ -المتوفّى سنة233للهجرة-، وكتاب (الأضداد) لابن السِّكِّيت -المتوفّى سنة244للهجرة-، وكتـــاب (الأضداد) لأبي حاتـم السّجستانيّ -المتوفّى سنة255للهجرة-، وكتـــاب (الأضداد) لأبي بكر بن الأنباريّ -المتوفّى سنة328للهجرة-، وكتاب(الأضداد مِن كلام العرب) لأبي الطّيب اللّغويّ -المتوفّى سنة351للهجرة-.

ومن كتب التّرادف كتـــاب (ما اختلف ألفاظه واتّفقت معانيه**)** للأصمعي، وكتـــــــاب (الألفاظ) لابن السِّكِّيت، وكتـاب (الألفاظ الكتابيّة) لعبـــد الرّحـمـن الـهمدانـيّ -المتوفّى ســــنة320للهجرة-، وكتـاب (جواهر الألفاظ) لقُدامة بن جعفر -المتوفّى سنة337للهجرة-، والألفاظ الـمتقاربة الـمعنى للرّمّانيّ-المتوفّى سنة384للهجرة-. وألّف أبو هلال العسـكريّ -المتوفّى سنة395للهجرة- كتاب (الفروق اللّغويّة) عرض فيه الفروق الدّقيقة في اللّفظين اللّذين يُظنّ أنـّهما مِن التّرادف.

ومن كتب الاشتقاق كتاب **(**الاشتقاق**)** لابن دريد -المتوفّى سنة321للهجرة-، وكتاب **(**الاشتقاق**)** لابن السّرّاج -المتوفّى سنة316للهجرة-.

ومن كتب التّعريب كتاب **(**الـمعرّب**)** لأبي منصور الـجواليقيّ -المتوفّى سنة539للهجرة-، وكتــاب **(**الـمهذّب في ما وقع في القرآن من الـمعرّب**)** للسّيوطيّ، وكتاب (شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدّخيل) لشهاب الدّين الخفاجيّ -المتوفّى سنة1069للهجرة-.

ومن كتب الإتباع اللّفظيّ كتاب (الإتباع) لأبي الطّيب اللّغويّ، وكتاب (الإتباع والـمزاوجة) لابن فارس.

ومن كتب الإبدال كتاب **(**الإبدال**)** لابن السِّكِّيت، وكتاب **(**الإبدال**)** لأبي الطّيب اللّغويّ.

ومن كتب اللّغات كتاب **(**اللّغات) رواية ابن حسنون الـمقرئ عـن ابن عبّاس.

ومن كــتب اللّحن والتّصحيح اللّغويّ كتاب **(**ما تلحن فيه العامّة**)** للكسائي -المتوفّى سنة189للهجرة-، وكتـاب **(**لـحــن العوام**)** لأبـي بـكر الزُّبيديّ -الـمتوفّـى سنـــة379للهجرة-، وكتـاب (دُرَّة الغَوَّاص في أوهام الـخواصّ**)** للحريريّ -المتوفّى سنة516للهجرة.

ومن كتب الـمُثَنَّى كتاب (المثنى) لأبي الطّيّب اللّغويّ، وكتاب (جنى الـجنّتين في تـمييز نوعي الـمثنّيين) للـمُحِبّـيّ -الـمتوفّـى سنـــة1111للهجرة-

ومن كتب الـمثلّث كتاب الـمُثلّث لقطرب، وكتاب الـمثلّث لابن السِّيد البَطَلْيَوْسيّ-الـمتوفّـى سنـــة521للهجرة-، وكتاب إكمال الإعلام بتثليث الكلام لابن مالك الـنّحويّ-الـمتوفّـى سنـــة672للهجرة-

ومن كتب الـمقصور والـممدود كتاب **(**الـمقصور والـممدود**)** لنفطويه -المتوفّى سنة323للهجرة، وكتاب **(**الـمقصور والـممدود**)** لأبي عمر الزّاهد المتوفّى سنة345للهجرة، **و(**الـمقصور والـممدود**)** لأبي عليّ القالي -المتوفّى سنة356للهجرة-.

ويطلق مصطلح فقه اللّغة عندنا الآن على العلم الذي يـحاول الكشف عن أسرار اللّغة؛ للوقوف على القوانين التي تسير عليها في حياتـها، ومعرفة سرّ تطوّرها، ودراسة ظواهرها الـمختلفة دراسة تاريـخية من جانب، ووصفيّة من جانب آخر، وهو بـهذا يضمّ كلّ الدّراسات اللّغويّة التي تبحث في نشأة اللّغة الإنسانيّة، واحتكاك اللّغات الـمختلفة بعضها ببعض، ونشأة اللّغة الفصحى واللّهجات، وكذلك تلك التي تبحث في أصوات اللّغة، ودلالة الألفاظ وبنيتها من النّواحي التاريـخيّة الـمقارنة، والنّواحي الوصفيّة، وكذلك العلاقات النّحويّة بين مفرداتـها.

وحين اكتشف العلمـاء أنّ اللّغات يـمكـن الـموازنة بينها نشأ فقــه اللّغــة الـمقارنComparative Philology، وقد انصبّ أكثر هذه الدّراسات الـمقارنة أولًا على اللّغات الـهنديّة-الأوربيّة، وهناك دراسات تتعلق باللّغات الرّومانسيّة الـمنبثقة عن اللاتينيّة كالفرنسيّة والإيطاليّة والإسبانيّة والبرتغاليّة والرّومانيّة.

وأمّـا علــم اللّغــة الــذي يُطلق عليــه أحيانًا علم اللّغــة العـامGeneral Linguistics فقد دخل الـجامعات العربيّة حديثًا، ويُعْنَى بدراسة اللّغة دراسة علميّة، ويقوم بدراسة اللّغة مِن الـجوانب الآتية:

أولًا: الأصواتPhonetics - Phonology

ثانيًا: بناء الكلمة (الصّرف)Morphology

ثالثًا: بناء الجملة (النّحو)Syntax , Grammar

رابعًا: الدلالة (علم الـمعنى)Semantics

والأساس النّظريّ لـهذا العلم هو أنّ اللّغة ظاهرة إنسانية تستعملها كلّ الـمجتمعات؛ لأداء وظائف مـحدّدة، وبناء هذه اللّغات يتألّف مِن أصوات تنتظم في كلمات، والكلمات تتألف منها جـمل، والبشر جـميعًا يستعملون لغاتـهم في التّعبير عن أفكارهم ورغباتـهم وتوصيلها إلى الآخرين.

ويسعى علم اللّغة العامّ إلى وضع نظرية في اللّغة، ونظرًا لـهذه الطّبيعة النّظريّة أَطْلق عليه بعض الباحثين تسمية (علم اللّغة النّظريّ)Theoretical Linguis ، ويعتمد علم اللّغة العامّ في وضع نظريته ومناهجه على ما تصل إليه علوم اللّغة الـمختلفة.

ويتصل علم اللّغة اتّصالًا وثيقًا بعلوم أخرى إنسانية كعلم الاجتماع والتاريخ والـجغرافيا، وعلوم صرفة كعلم وظائف الأصوات، وعلم وظائف الأعضاء، وعلم التّشريح، وعلم الوراثة. فعند دراسة اللّغة مِن النّاحية الصّوتيّة لا بدّ مِن الاستعانة بعلم وظائف الأعضاء الذي يقوم بدراسة أعضاء النّطق عند الإنسان، والاستعانة بعلم الفيزياء الذي يـحلّل الأمواج الصّوتيّة في الـهواء بين الـمتكلِّم والسَّامع.

ولـمّا كانت اللّغة لا تـحيا إلّا في ظلّ مـجتمع إنساني ظهر علم اللّغة الاجتماعيّ؛ لاتّصال علم اللّغة الوثيق بالعلوم الاجتماعيّة، ولـمّا كانت اللّغة سلوكًا إنسانيًا حدث امتزاج بين علم اللّغة وعلم النّفس فظهر علم اللّغة النّفسيّ.

ولا بدّ من التّنبيه على أنّه ليس مِن اليسير تـحديد الفروق الدّقيقة بين علم اللّغة وفقه اللّغة؛ لأنّ أغلب مباحثهما متداخل لدى كثير من العلماء، وكان اللّغويون القدامى لا يفرّقون بيـن فقه اللّغة وعلماللّغة؛ لأنّ اللّفظتين تعنيان -في مفهومهم- شيئًا واحدًا، فمعنى الفقه في معجمات الألفاظ هو: العلم بالشّيء والفهم له؛ مـمّا دعا بعض الباحثين إلى التّمسّك بـمصطلح فقه اللّغة وتعميمه على جـميع البحوث اللّغويّة؛ لأنّ كلّ علم بشيء فهو فقه له، فما أجدر هذه الدّراسات جـميعًا أنْ تُسَمّى فقهًا.

وتـميل الدّراسات اللّغوية الـحديثة بـمفهومها الـحديث إلى التّفريق بين فقه اللّغة وعلم اللّغة؛ لأنّ منهجيّة فقه اللّغة تـختلف عن منهجيّة علم اللّغة، فالأُولى تدرس اللّغة وسيلةً لدراسة الـحضارة أو الأدب مِن خلال اللّغة، في حين أنّ علم اللغة يدرس اللّغة لذاتـها.

وأنّ اصطلاح فقه اللغة سبق مِن النّاحية الزّمانيّة اصطلاح علم اللّغة، وأنّ فقه اللّغة يُوصف في الغالب بأنّه مقارن، في حين أنّ علم اللّغة لا يُعنى بـما حول اللّغة.

وأنّ ميدان فقه اللّغة أوسع وأشـمل إذ إنّ الغاية النّهائيّة منه دراسة الـحضارة والأدب، والبحث عن الـحياة العقليّة مِن جـميع وجوهها، لذلك عُنِيَ فقهاء اللّغة بتقسيم اللّغات ومقارنتها بعضها مع بعض، وبإعادة صياغة النّصوص القديـمة؛ لشرحها في سبيل الوقوف على ما تتضمّنه مِن مضامين حضاريّة بـمختلف وجوهها. أمّا علم اللغة فيركز على التحليل لتركيب اللّغة بوصفها ميدانه الأساس.

وأنّ علم اللغة اتصف منذ نشأته بكونه علمًا حسب الـمفهوم الدّقيق لـهذا الـمصطلح، وقد شدّد معظم علماء اللغة على هذه النّاحية.

**مذاهب ونظريّات نشأة اللّغة:**

**1- الوحي والإلهام (التّوقيف):**

يرى أصحاب هذا الـمذهب أنّ اللّغة توقيف أو وحي من عند الله تعالى، فهي ليست من وضع البشر، مـحتجّين بقوله تعالــى: ((وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْـمَاءَ كُلَّهَا))[البقرة31]، ومنهم أبو علـيّ الفارســيّ -المتوفّى سنة377للهجرة-، وابن فارس –المتوفّى سنة395للهجرة-، وابن جنّي -المتوفّى سنة392للهجرة- في أحد آرائه.

قـال ابن فـارس **:** "أَقُول إنّ لغة العــرب توقيف، ودليـــل ذلك قولـــه جـلَّ ثناؤه: ((وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْـمَاءَ كُلَّهَا))، فكان ابن عبّاس –المتوفّى سنة69للهجرة- يقول: عَلَّمه الأسـماء كلَّها، وهي هذه التي يتعارفها النّاس مِن دابّة، وأرض، وسهل، وجبل، وحـمار، وأشباه ذلك".

وقال ابن جنّي**:** في "(باب القول على أصل اللّغة أإلـهامٌ هي أم اصطلاح) هذا موضوع مُـحْوِج إلى فضل تأمّل، غير أنّ أكثر أهل النّظر على أنّ أصل اللّغة إنّـما هو تواضع واصطلاح، لا وحـي وتوقيف، إلّا أنّ أبا عليّ -رحـمه الله- [يعني أستاذه أبا علــي الفارســــــيّ] قال لي يومًا: هي من عند الله، واحتجّ بقوله سبحانه: ((وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْـمَاءَ كُلَّهَا)).

وذكر ابن جنّي في موضع آخر مِن كتابه **(**الـخصائص**)** أنّه قَوُيَ في نفسه اعتقاد كونـها توقيفًا من الله، وأَنّـها وحي.

ونَبَّه ابن فارس على أنّ التَّعبير عن الأسـماء، وهي أسـماء الأشياء، قد جرى بالضَّمير **(**هم**)**، وهو ضمير يُعَبَّر به في العربيّة عن العقلاء، وذلك كما يرى لا يقف حائلًا دون مذهبه فـــــي تفســير الآيـة علـــى الوحي والتَّوقيف حين قــال: **((**ثُـمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ**))،** ولـم يقل: **"(**ثـمّ عرضهُنَّ**)"**...؛ لأنّه جارٍ على أُسلوب العرب فـــــي التَّغليب، وذلك نظير قوله تعالى: ((وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ))[النّور45]، فغلّب الله سبحانه في الآيتين كلتيهما العاقل على غير العاقل عندما اجتمعا معًا فــي صفة واحدة وسياق واحد، فقال في الأولى **((**عَرَضَهُمْ**))** بدلًا مـن **(**عرضهُنّ**)** ، وفي الثَّانية **((**مِنْهُمْ**))** بدلًا من **(**منهُنّ**)**.

وثـمة خلاف في تفسير هذه الأسـماء، ولعل أشهرها ما ذهب إليه ابن عبّاس، وهو أنّ الله سبحانه تعالى علّم آدم أسـماء جـميع الأشياء، وذهب آخرون إلى أنه سبحانه وتعالى علّم آدم أسـماء الأشياء كلّها، ما خلق وما لـم يـخلق، بـجميع اللّغات التي يتكلّم بـها أولاده بعده، وذهب آخرون إلى أنّه سبحانه وتعالى علّم آدم أسـماء الـملائكة وأسـماء ذريّته، وذهب آخرون إلى أنه سبحانه وتعالى علّم آدم فوائد الأشياء التي حوله وخواصها، وهي أنّ الفرس يصلح لكذا، والـحمار يصلح لكذا ... .

وكان ابن جنّي قد أشار إلى أنَّ **((**عَلَّمَ آدَمَ**))** في الآية الكريـمة يـجوز أن تكون بـمعنى (ألـهمه)، قال في كتابه (الـخصائص): "يـجوز أنْ يكون تأويله: أَقْدَرَ آدم على أنْ واضع عليها...". وإلى مثل ذلك ذهب السّيوطي –المتوفّى سنة911للهجرة- إذ يقول: "لِـمَ لا يـجوز أنْ يكون الـمراد مِن تعلّم الأسماء الإلـهام إلى وضعها؟ ولِـمَ لا يجوز أنْ تكون هذه الألفاظ وضعها قوم آخرون قبل آدم، وعلّمها الله آدم؟".

واحتجّ القائلون بـمذهب التّوقيف بنص قرآنيّ آخر وهو قوله تعالى: ((مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ))[يوسف40]، فقالوا إنّ ذلك يقتضي كون بقية الأسـماء توقيفيّة، وهي تلك الأسـماء التي لـم يُسمّوها. ويرى السّيوطيّ أنّ الآية الكريـمة ليست دليلًا قويًّا للقائلين بـمذهب التّوقيف؛ لأنّ الله **"**ذمَّهم؛ لأنّـهم سـمُّوا الأصنامَ آلـهة واعتقدوها آلـهة**".** ومعنى ذلك: أنّه ليس الـمراد بــــ(سـمّى) في الآية وضع الأسـماء للآلـهة، وإنّـما الـمراد تسميتها آلـهة تعبد، والاعتقاد بأنّـها آلـهة.

واحتجّ القائلون بـمذهب التّوقيف بنصٍّ قرآنــيّ آخـر، وهــو قوله تعالى: ((وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ))[الرّوم22]، فقالوا إنّ الـمراد بالألسنة اللّغات، فرأوا أنّ اختلاف اللّغات مِن فعل الله ووحيه.

وذهب الـمعارضون لـمذهب التّوقيف إلى أنّ الآية الكريـمة ليس فيها دليل على التّوقيف، فربّـما يكون اختلاف الألسنة من التّواضع والاصطلاح.

**2- الاصطلاح أو المواضعة:**

يظهر من نصّ ابن جنّي الذي تقدّم ذكره أنّ أصحاب القول بـهذا الـمذهب أكثر مـن القائلين بالتَّوقيف، فقد ذكر **"**أنّ أكثر أهل النّظر علــى أنّ أصل اللّغة إنَّما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف**"،** فاللّغة على هذا الـمذهب نشأت مواضعة واتّفاقًا بين بني البشر، أي إنّ ارتـجال الألفاظ كان أساسًا في بناء اللّغة ونشأتـها، قال ابن جنّي : "ذهبوا إلى أنّ أصل اللّغة لا بدّ فيه من الـمواضعة، قالوا: وذلك كَأَن يـجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدًا، فيحتاجوا إلـــى الإبانة عن الأشياء الـمعلومات، فيضعوا لكلّ واحد منها سِـمَةً ولفظًا، إذا ذُكِر عُرِف به مُسَمَّاه؛ ليمتاز من غيره، وليُغْني بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين ... فكأنّـهم جاؤوا إلى واحد من بني آدم، فأومؤوا إليه، وقالوا : إنسان إنسان إنسان، فأيّ وقت سُـمِع هذا اللّفظ عُلِم أنَّ الـمراد بـــه هذا الضَّرب من الـمخلوق، وإنْ أرادوا سِـمَة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك، فقالوا: يد ، عين، رأس، قدم، أو نـحو ذلك. فمتى سُـمِعت اللَّفظة من هذا عُرِف معنِيها، وهَلُمّ جرًّا في ما سوى هذا من الأسماء، والأفعال، والـحروف...**".** وكان أبو عليّ الفارسيّ -المتوفّى سنة377للهجرة- من الآخذين بـهذا الـمذهب؛ ليجمع بين التَّوقيف والاصطلاح، ويكون بـهذا قد جـمع بين النَّقل والعقل. ويبدو أنّ ابن جنّي من القائلين بالـمواضعة والاصطلاح أيضًا، فهو ينقل ردّ أصحاب مذهب الاصطلاح لـمذهب التّوقيف حين **"**قالوا: والقديـم سبحانه لا يجوز أنْ يُوصف بأنْ يواضع أحدًا من عباده علـــى شيء؛ إذ قد ثبت أنّ الـمواضعة لا بدّ معها من إيـماء وإشارة بالـجارحة نحو الـمومأ إليه والـمشار نـحوه، والقديـم سبحانه لا جارحة له فيصحّ الإيـماء والإشارة بـها منه، فبطل عندهم أنْ تصحّ الـمواضعة على اللّغة منه -تقدّست أسماؤه-**".**

ولعلّ استحواذ الفكرة الدِّينيّة على ابن جنّي جعله أكثر ميلًا إلى الرَّأي القائل بالتّوقيف إذ صرّح بأنّه قَوُيَ في نفسه اعتقاد كونـها توقيفًا من الله.

ومـمّا وُجِّه لـهذا الـمذهب من نقد أنّ التّواضع على التَّسمية يتوقّف في كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بـها الـمتواضعون. فكيف نشأت هذه اللّغة الصّوتيّة؟ أي إنّ ما يـجعله أصحاب هذا الـمذهب منشأ اللّغة، يتوقّف هو نفسه على وجودها من قبل.

**3- محاكاة أصوات الطبيعة :**

يرى أصحاب هذا الـمذهب أنّ النَّشأة الأولى للألفاظ لا تعدو تقليد الأصوات التي في الطّبيعة كمواء القط، ونُباح الكلب، وحفيف الشَّجر، وحنين الرَّعد...أي إنّ أصوات الكلمة عند الإنسان القديـم كانت نتيجة تقليد مباشر لِـما حوله في الطّبيعة.

وكان اللّغويون العرب القدامى قد تنبّهوا على طائفة من الألفاظ التي سـميّت بأسـماء مأخوذة من أصواتـها نفسها، قال الـخليل -المتوفّى سنة175للهجرة-: "الصَّوْقَرير: حكاية صوت طائر يُصَوْقِرُ فــــــي صياحه، تسمع نـحو هذه النَّغمة في صوته" ، وقال ابن جنّي -المتوفّى سنة392للهجرة-: **"**وسـمّوا الغراب غاقِ؛ حكاية لصوته، والبَطَّ بَطًّا؛ حكايةً لأصواتـها".

وقد لـخّص ابن جنّي مذهب مـحاكاة أصوات الطّبيعة بقوله: "وذهب بعضهم إلى أنّ أصل اللّغات كلّها إنّـما هو من الأصوات الـمسموعات، كدويِّ الرِّيح، وحنين الرَّعد ، وخرير الـماء، وشَحِيج الـحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونَزيب الظّبي[[1]](#footnote-1)، ونـحو ذلك"، ولـم يستبعد ابن جنّي هذا الـمذهب، بل رآه مقبولًا فقال معلقًا عليه: "وهذا عنـدي وجه صالـح ومذهبٌ مُتَقَبَّل"، وهذا هو الرّأي الثّالث له في نشأة اللّغة.

وسـميّت هذه النّظرية عند غير العرب باسم نظرية (البو-ووBow waw )، أي: مـحاكاة أصوات الطّبيعة، فقد بادر بعض العلماء إلى وضع هذه النّظريّة بعد ورود كلمات يدلّ لفظها على معناها كالرّنين، والغُنّة، والزّقزقة، والقهقهة، والـحفيف، والـخرير، والـخَشْخَشَة، والطَّقْطَقَة...

وهناك أمثلة تعضد صدق هذه النّظريّة، منها لفظ (cuckoo)، وهو اسم طائر سُـمّي بالصّوت الذي يُـحْدِثه.

وتبين نظريّة الـمحاكاة تأثّر الإنسان بالبيئة التي تـحيط به، فهو يستمدّ ألفاظه التي شرع ينطق بـها لأوّل مرّة مـمّا حوله فتراه مقلّدًا ومـحاكيًا.

ويرى الطّاعنون في هذه النّظريّة أنّـها تقف بالفكر الإنسانيّ عند حدود حظائر الـحيوانات، وتـجعل اللّغة الإنسانيّة الرّاقية مقصورة النّشأة على تلك الأصوات الصّادرة عن الطّبيعة.

ويرى الطّاعنون في هذه النّظرية أيضًا أنّ الكلمات التي يـمكن أنْ تُفَسَّر على (البو-ووBow waw ) قليلة جدًّا، فضلًا عن وجود آلاف الكلمات التي ليس هناك علاقة بين معناها وصوتـها.

ويـجيب أصحاب (البو-ووBow waw ) عن هذا الاعتراض الأخير بأنَّه من الـممكن أنّ تكون النَّشأة الأولى للّغة بـمحاكاة أصوات الطّبيعة، ثـمّ تغيّرت الدّلالات بعد ذلك بـحكم التّطور اللّغويّ عبر العصور والأجيال حتّى انتهت إلى دلالات أخرى حسيّة أو معنوية ذات وشيجة بالدّلالة الأولى أو مبتعدة عنها.

**4- نظرية الاستعداد الفطريّ:**

جاء بـها اللّغوي الألـماني موكس مولر وسـمّاها نظرية (Ding Dong)، وخلاصتها أنّ الإنسان مزوّد بفطرته بالقدرة على صوغ الألفاظ الكاملة، وهو مطبوع على الرّغبة في التّعبير عن أغراضه بأية وسيلة من الوسائل، غير أنّ القدرة على النّطق بالألفاظ لا تظهر آثارها إلّا عند الـحاجة أو في الوقت الـمناسب.

ويريد موكس مولر بتسمية (Ding Dong) أنّ يُشَبِّه حوادث الزَّمن ببندول السَّاعة الذي يتحرّك، فيُخْرِج بتحرّكه القوة الكامنة في السَّاعة التي ينطوي عليها اللَّولب، فكأنّ النَّفس البشريّة مـخزن مـمتلئ بالألفاظ، ينفتح شيئًا فشيئًا بـمفتاح الزّمن ومقتضيات الـحياة الواقعيّة.

ولعل الذي دعا موكس مولر إلى وضع هذه النّظرية ملاحظة الأطفال في حياتـهم اليوميّة حين يضعون أسـماءً للأشياء التي يرونـها ولا يعرفون لـها أسـماءً، فهم يبتكرون أسـماءً لـم يسمعوا بـها مِن قبل؛ إرضاءً لرغبتهم الفطريّة في الكلام والتّعبير عن أغراضهم. فاستنبط مِن ملاحظته أنّ الإنسان مزوّد بتلك القوّة التي تنشأ عنها الألفاظ .

واعترض الـمعترضون على هذه النّظرية بقولهم: متى زُوِّد الإنسان بـهذه الذَّخيرة اللّغويّة؟ وكيف انطوت نفسه على تلك الألفاظ الكاملة؟ وإذا كان قد زُوِّد بفطرته بـهذه الألفاظ، فِلمَ اختلفت اللّغات وتعدّدت اللّهجات؟

ويُلْحظ أنّ هذه النّظريّة تفترض ظهور الكلمات الأولى لدى الإنسان كاملة غير خاضعة لسُنَّة التّطور.

**5- نظرية التّنفيس عن النّفس:**

يشير أصحاب هذه النّظريّة إلى أنّ مرحلة الألفاظ كانت قد سبقتها مرحلة الأصوات السّاذجة التّلقائيّة الانبعاثـيّة التي صدرت عن الإنسان للتّعبير عن ألـمه، أو سروره، أو رضاه، أو نفوره.

وتُسَمَّى هذه النَّظريّة أيضًا بنظرية الأصوات التَّعجبيّة العاطفيّة، وتُدْعى أيضًا نظرية الـــــ(pooh pooh)، فما الأصوات الأولى التي نطق بـها الإنسان إلّا أصوات تعجبيّة عاطفيّة صدرت عن دهشة، أو فرح، أو وجع، أو حزن، أو استغراب، أو تقزّز، أو تأفّف.

وتعزو هذه النّظريّة نشأة اللّغة الإنسانيّة إلى أمر ذاتيّ، فهي تعتدّ بالشُّعور الوجدانيّ الإنساني؛ لأنّ بالإنسان حاجة إلى التَّعبير عـمّا يـجيش بصدره من أحاسيس وانفعالات.

ويرى الطّاعنون في هذه النّظريّة أنـّها لا تبيّن منشأ الكلمات الكثيرة التي لا يـمكن رَدُّها إلى أصوات انفعاليّة، ولا تبيّن كيفية تـحوّل تلك الأصوات الانفعاليّة السّاذجة إلى ألفاظ.

**6- نظريّة الاستجابة الصّوتيّة للحركات العضليّة أو نظرية (yo – he – ho):**

يذهب أصحاب هذه النّظرية إلى أنّ منشأ اللّغة كان في البدء أصواتًا عفويّة صدرت عن الإنسان عندما مارس عملًا عضليًّا، فتفوَّه بـمقاطع صوتيّة رافقت الـجهد الـمبذول؛ لتخفيف حدَّة ذلك الـجهد، وهو عمل لا إراديّ يقوم به الإنسان في كثير من أعماله اليوميّة لا سيما التي تتطلّب جهدًا مكثَّفًا، كالذي يبذله الملّاحون في السّفن الشِّراعية، أو الصَّيَّادون في إنزال السفن إلى الماء وجرِّ الشِّباك، أو الذين يـنقلون صخورًا ضخمة، أو أيّ عمل جـماعي يرتبط برفع الأحـمال أو الرّقص...

وتكون الـمقاطع الصّوتيّة أو الألفاظ التي يطلقها هؤلاء ذات دلالة واضحة، وربّـما لا تكون كذلك، لكنَّهم يـجدون راحة عند إطلاقها.

ويرى الـمؤمنون بـهذه النَّظرية أنّ تلك الـمقاطع الصّوتيّة، أو الألفاظ لا تلبث أنْ ترتبط من حيث الدَّلالة بالعمل نفسه، فتدلّ عليه، وتـمثّل هذه الألفاظ -في رأيهم- النَّواة الأولى للّغات البشريّة.

والنّقد الـموجّه إلى هذه النّظريّة أنّـها لـم تفسّر إلّا جزءًا يسيرًا من اللّغة، ثـمّ كيف نشأت اللّغة كلّها من الاستجابة الصّوتيّة للحركات العضليّة؟ فما علاقة لفظ الأب، والأمّ، والـحنان، والـجمل، والـجمال... بالأصوات التي هي استجابة للحركات الـجسميّة؟

**7- نظريّة التّطور الفطريّ:**

يُشَبِّه الـمنادون بـهذه النّظريّة نشأة اللّغة الإنسانيّة بالنّموّ اللّغويّ عند الطّفل، وعليه فإنّ نشأة اللّغة مرّت بـمراحل فطريّة تساير مراحل النّموّ العقليّ لدى الإنسان، وهذه الـمراحل -كما يرون- هي:

1-مرحلة الأصوات السّاذجة الانبعاثــيّــة التي صدرت عن الإنسان في العصور الأولى، حين كانت أعضاء نطقه غير ناضجة، وميوله ورغباته غير مـحدودة.

ونظير هذه الـمرحلة عند الطّفل ما يصدر عنه -في أوّل عهده بالنّطق- من أصوات مبهمة لا يُفْهَم منها في كثير من الأحيان رغبة ولا غرض معين.

2-مرحلة الأصوات الـمُنْبِئة عن الأغراض والرَّغبات الـمصحوبة بالإشارات التي تساعد الأصوات مساعدة فطريّة في الإبانة عن الأغراض .

ونظير هذه الـمرحلة عند الطّفل -في أواخر السَّنة الأُولى من حياته- ما يصدر عنه من أصوات مصحوبة بإشارات مُنْبِئة عن أغراضه.

3-مرحلة الـمقاطع: وفيها انتقلت لغة الإنسان من أصوات غير مُـحَدَّدة الـمعالم إلى أصوات مُـحَدَّدة بصورة مقاطع قصيرة مستنبطة من أصوات الأشياء أو الظَّواهر الطَّبيعيّة.

ونظير هذه الـمرحلة عند الطّفل -في الشُّهور الأولى من السَّنة الثَّانية- ما يصدر عنه من مقاطع متكـرّرة يطلب بـها ما يريد أو يدلّ بـها على أشياء معيَّنة متأثِّـرًا في ذلك بـما يسمعه من مـحيطه، فكثير من الأطفال يطلقون في هذه السِّنّ (هَوْ هَوْ) على الكلب، و(تِكْ تِكْ) على السَّاعة.

4-مرحلة الكلمات: وفيها انتقلت لغة الإنسان من الـمقاطع الصّوتيّة القصيرة إلى الكلمات، وبـهذه الكلمات عَبَّر عن أغراضه ورغباته؛ لأنَّ عقله قد اكتمل، وأعضاءه الصَّوتيّة قد نضجت، فشرع يتفاهم مع غيره.

ونظير هذه الـمرحلة عند الطّفل ما يصدر عنه من كلمات يتفاهم بـها مع الـمحيطين به، وهكذا يتألَّف معجمه اللُّغويّ من الألفاظ الشَّائعة في بيئته، وهو اللَّازم للتَّعبير عن أغراضه.

5-مرحلة الوضع والاصطلاح**:** وهي آخر مرحلة من مراحل النّموّ اللّغويّ، وفيها يضع الإنسان الـمصطلحات العلميّة، ويبتكر الأسـماء الدَّالة على الـمُسَمَّيات الـمُسْتَحْدَثة، وما تزال اللّغة تنمو باطّراد ويزداد عدد مفرداتـها كلّما أَوْغَل الإنسان في التَّحضُّر، ولا شكَّ في أنَّ ذلك لن يقف عند حدٍّ معيّن.

ونظير هذه الـمرحلة عند الطِّفل تلك الـمرحلة التي يذهب فيها إلى الـمدرسة فيتعلّم العلوم والفنون والمصطلحات... **.**

**ظواهر لغويـّـة لها أثر فـي نـموّ العربيّة وثرائها واتّساعها:**

ثـمّة ظواهر لغوية في لغتنا العربيّة أثّرت تأثيرًا كبيرًا في لغتنا، فنجد اللّفظ الواحد صار حاملًا لـمعنيين أو أكثر، أو نـجد للمعنى العامّ أكثر من لفظ يدل عليه مع مائز الفروق الدّلاليّة الدّقيقة، وغير ذلك من الإثراءات التي نالت كلام العرب عن طريق ظواهر لغويّة كثيرة كانت فاعلة فيه كالألفاظ الإسلاميّة، والـمشترك اللّفظيّ، التّرادف، الأضداد، والاشتقاق، والتّعريب، والإتباع اللّفظيّ، والـمثنّى، وغيرها.

**\*- الألفاظ الإسلاميّة:**

هي ألفاظ أكسبها الدِّين الإسلاميّ معاني جديدة لـم يكن الـمجتمع الـجاهليّ يعرفها إلّا على غير هذه الوجوه مِن الـمعاني. وتـمثّل الألفاظ الإسلامية مظهرًا مهمًا من مظاهر التّطور الدّلاليّ في اللّغة العربيّة، فقد كان للقرآن الكريـم أثر عظيم في تغيير دلالة هذه الألفاظ إذ أضفى عليها دلالات لـم تكن مُتَداولة عند أهل الـجاهلية كالإيـمان، والكفر، والصّلاة، والـمنافق، والـماعون، والـحجّ، والصّيام، والتّيمّم، وغيرها.

وقد عُنِـي اللّغويّون القدامى بـمعاني هذه الألفاظ فبيّنوا الأصل الذي كانت عليه، ثـم وقفوا عند الـمعنى الذي آلت إليه في عهد الإسلام، كما صنع ابن قتيبة -المتوفّى سنة276للهجرة- فــي مواضع مـن كتبه (تفسيـــرغريب القرآن**)،** و**(**غريب الحديث**)،** و**(**تأويــل مشكل القرآن**)**، وكما صنـــع أبو بكر بن الأنباري المتوفّى سنة 328للهجرة- في مواضع من كتابه **(**الزاهر في معاني كلمات النّاس**)**، ومِن مظاهر هذه العناية أنْ أفردَ أبو حاتـم الرّازيّ -المتوفّى سنة322للهجرة-كتابًا خاصًّا بالألفاظ الإسلاميّة سـمّاه (الزِّينة في الألفاظ العربيّة الإسلاميّة)**.**

ولتمييز الـمعنى القديـم الذي عرفه العرب القدامى مِن الـمعنى الإسلاميّ رأى ابن فارس –المتوفّى سنة395للهجرة- أنْ يُسمّى الأوّل لغويًّا، والثّاني شرعيًّا، قال في كتابه الصّاحبي**:"**فالوجه في هذا إذا سُئِل الإنسان عنه أنْ يقول: في الصّلاة اسـمان: لغويّ وشرعيّ، ويَذْكر ما كانت العرب تعرفه، ثـمّ ما جاء الإسلام به**".**

وتعدّ لفظة (الـمنافق) من الألفاظ الإسلاميّة، قال ابن قتيبة: "النِّفاق فـي اللّغة مأخوذ من نافِقاء اليربوع، وهو جُحْر مِن جِحَرَتِه، يـخرج منه إذا أُخذ عليه الـجُحْر الذي دخل فيه، فيقال: قد نَفَقَ ونَافَقَ، شُبِّهَ بفعل اليربوع؛ لأنّه يدخل مِن باب ويـخرج مِن باب، وكذلك الـمنافق يدخل في الإسلام باللّفظ، ويـخرج منه بالعقد...والنِّفاق لفظ إسلاميّ لـم تكن العرب قبل الإسلام تعرفه".

وجـماع القول أنّ العلاقة بين الـمعنيين –اللّغوي والإسلامي– متأتّية مـن مشابـهة الـمنافق لليربوع في سلوكه، ووجه الشّبه بينهما الإيهام الذي يوقعانهِ في نفس مَن ينظر إليهما، وذلك بدخولـهما مِن باب وخروجهما مِن آخر، فلا يَعْرف مَن ينظر إلى فعلهما سوى الباب الذي دخلا منه، ويـجهل أمر الباب الآخر الذي أضمراه للخروج.

ومِن الألفاظ الإسلاميَة التي تـختصّص معناها بعد أنْ كان عامًا **(**التّيمّم**)،** قال تعالــى: **((**وَإِنْ كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَـجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ**))** [الـمائدة 6]، أي: اقصدوا الصّعيد الطّيّب، وكان التّيمم يُطْلَق أوّلاً على القصد مطلقًا، يقال: يَـمَّمْته إذا قصدته، وهكـذا تغيّرت دلالة الفعل **(**تيمم**)** مِن القصد مطلقًا إلى مسح الوجه واليدين بالتّراب؛ لأنّ الغرض مِن قصد التّراب التّمسّح به. ولـم تكن العرب تعرف لـهذا الفعل معنى غير القصد، قال الشّاعر:

وَفي الأَظعانِ آنِسَةٌ لَعوبٌ تَيَمَّمَ أَهْلُها بَلَدًا فَساروا

أي: قصد أهلُها بلدًا، وقد استعمله القرآن الكريـم بـهذا الـمعنى، قال تعالى: **((**وَلَا تَيَمَّمُوا الـخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ**))،** أي: لا تقصدوا ولا تعمدوا، وهذا هو المعنى اللّغويّ للّفظ لا الإسلاميّ.

ومن الألفاظ الإسلاميّة (الـمؤمن)، فقد ذكر ابن فارس أنّ العرب قبل الإسلام عرفت الـمؤمن من الإيـمان، وهو التّصديق، ثـمّ زادت الشّريعة شرائط وأوصافًا بـها سُـمِّي الـمؤمن مؤمنًا. وقد استعمل القرآن الكريـم الـمعنى اللّغويّ للّفظة علـى لسان إِخوة يوسف –عليه السّلام–، قـال تعالـى: **((**وَمَا أَنتَ بِـمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صادقين**))** [يوسف17]، أي: وما أنت بـمصدِّق، ولو كنّا صادقين. ويُقال فــي كلام العرب: ما أُومِنُ بشيء مـمّا تقول، أي: ما أُصدِّق بذلك، وهكذا تـحوَّل معنى اللّفظة من التّصديق الـمطلق إلى التّصديق بالله، ورسله، وكتبه، وبالبعث، والصراط، والـجنّة والنّار...

ويلحظ أنّ القرآن الكريم حين وجّه معاني هذه الألفاظ إلى ما يريده كمعنى جحد نعم الله مع لفظ الكافر، ومعنى التّمسّح بالتّراب مع التّيمّم، ومعنى التصديق بالله، ورسله، وكتبه، وبالبعث، والصراط، والـجنّة والنّار...

مع الإيمان يلحظ أنّه لـم يلغ المعنى اللغوي للفظ بل استعمله كما رأينا مع الـمؤمن والتّيمّم هنا، والعربيّ يعرف الـمراد بالـموضعين، ومرشده في ذلك هو السّياق الذي ورد فيه اللّفظ.

وألقت السّنّة النّبويّة الشّريفة بظلالـها على طائفة كبيرة من ألفاظ اللّغة فأكسبتها معاني جديدة، لـم تكن مألوفة قبل الـمبعث، ومن الكلمات التي انضوت تـحت لواء الألفاظ الإسلامية **(**الصُّرَعَة**)**، فقد كان للحديث النّبويّ الشّريف أثر بيِّن في نقل اللّفظة مِن معناها الأصليّ إلى معنى جديد غير مسبوق، قال ابن الأثير –المتوفّى سنة606للهجرة- في حديث **(**ما تَعُدُّون الصُّرَعَةَ فيكم**) "**الصُّرَعَةُ المبالغ في الصِّراع الذي لا يُغْلَب، فنقله إلى الذي يَغْلِب نفسه عند الغضب ويقهرها"**.**

ونشير إلى أنّ بناء فُعَلَة يفيد الـمبالغة في اسم الفاعل كقولهم: رجل هُزَأَة وهو الذي يهزأ بالنّاس كثيرًا، ولُـحَنَة وهو الذي يلحن كثيرًا، وهُذَرَة وهو الذي يُكْثر الكلام في ما لا يعنيه. وقــــد حافظت لفظة **(الصُّرَعَة)** بعد انتقال دلالتها إلى المعنى الإسلامي على ما يفيده بناء فُعَلَة مِن إرادة الـمبالغة في اسم الفاعل؛ لأنّ الصُّرَعَة مِن الرِّجال هو مَنْ يبالغ في حِلْمه وقهر نفسه عند الغضب.

**\*- المشترك اللّفظيّ :**

يراد بالاشتراك: أنْ تكون اللّفظة مـحتملة لـمعنين أو أكثر، ويطلق اللّغويّون القدامى علـــى هـذه الظّاهرة عبـارة **(**ما اتّفق لفظُه واختلف معناه**)**، وألّفوا فيــها كتـــبًا، نذكر منــها كتـــاب **(**الأجناس من كلام العرب وما اشتبه في الألفاظ واختلف في المعنى**)** لأبي عُبَيد القاسم بن سلَّام –المتوفّى سنة224للهجرة-، وكتاب **(**ما اتفق لفظه واختلف معناه**)**لإبراهيم اليزيديّ -المتوفّى سنة225للهجرة-، وكتاب **(**ما اتّفق لفظُه واختلف معناه**)** لأبي العميثل -المتوفّى سنة240للهجرة-، وكتاب (ما اتّفق لفظه واختلف معناه من القرآن الـمجيد) للمبرّد -المتوفّى سنة285للهجرة-، وكتاب(الـمنجَّد في اللّغة) لكُراع النَّمل الـهُنائيّ –الـمتوفّى سنة310للهجرة-.

وقد وقع الـخلاف بين اللّغويين حول وجود الـمشترك اللّفظيّ في اللّغة، فذهب معظمهم إلى وقوعه، وأنكره ابن درستويه –المتوفّى سنة347للهجرة- فقال**: "**إذا اتّفق البناءانِ في الكلمة والحروف، ثــمّ جاءا لمعنيين مختلفين، لم يكن بدٌّ مـن رجوعهما إلى معنى واحد يشتركان فيــه، فيصيران متّفقي اللّفظ والمعنى**"**، ورفض أنْ يكون للفعل **(**وجد**)** معان مـختلفة، وذهب إلى تأويل هذه الـمعاني تأويلًا يـُخْرجها من باب الاشتراك، ويرجعها إلى معنى واحد، قال في كتابه (تصحيح الفصيح): **"**فظنَ مَنْ لم يتأمل المعاني، ولم يتحقّق الحقائق أنّ هذا لفظ واحد قد جاء لمعان مختلفة، وإنَّما هذه المعاني كلّها شيء واحد، وهــو إصابة الشّيء خيرًا كان أو شرًّا**".** ونبّه أبو عليّ الفارسيّ -المتوفّى سنة377للهجرة- على أنّ "اتّفاق اللّفظين واختلاف الـمعنيين ينبغي أَلَّا يكون قصدًا في الوضع، ولا أصلًا، ولكنّه مِن لغات تداخلت**"**، وهذا رأي مقبول، إذ لا يُعْقَل أنْ يكون اللّفظ الواحد وُضِع ابتداء لـمعانٍ عديدة، فلا بدّ من وجود عوامل أسهمت في نشوء الـمشترك اللّفظيّ، نذكر منها:

**أ**-اختلاف اللّهجات العربيّة**:** وهو أبرز العوامل، ففي البدء كانت البيئة اللّغويّة تعبِّر بلفظ واحد عن معنى معين، ولا وجود للألفاظ الـمشتركة فيها، ثـمّ تعددت البيئات، وهكذا صار اللفظ مستعملًا في لـهجات العرب بـمعانٍ مـختلفة، لكنّ معجماتنا اللّغوية لا تُسْعفنا دائمًا بنسبة الـمعاني إلى القبائل الـمختلفة.

ب-تطوّر دلالة الألفاظ مِن معناها الأصلي إلى معانٍ مـجازيّة لعلاقة بينها.

ت-تطوّر دلالة الألفاظ الإسلاميّة**.**

ث-الاقتراض من اللّغات الأخرى**:** وذلك بأن تتحد كلمتان بالصّورة وتـختلفان بالـمعنى، إلّا أنّ كلَّا منهما ينتمي في الأصل إلى لغة مستقلّة، ولعل هذا قليل.

ج-التّطور الصّوتي في الألفاظ**:** مثال ذلك مَرَدَ بـمعنى أقبل وعتا، ومَرَدَ الـخبز بـمعنى لَيَّنه، فأصل اللّفظ في الـمعنى الثّاني هو: مرث الشّيءَ في الـماء: إذا أنقعه فيه، ثـمّ تـحوّل اللّفظ من (مرث) إلى (مرتَ) بابدال الثّاء تاء؛ لقرب مـخرجيهما، ثـمّ تـحوّل اللّفظ من (مرت) إلى (مَرَدَ) بإبدال التّاء دالًا؛ لقرب مـخرجيهما، وهكذا صار **(**مَرَدَ**)** من ألفاظ الـمشترك بسبب الـمعنى الـجديد الذي لـحقه، وهو: ليَّن بالـماء، ولعل هذا قليل أيضًا.

ولا تنفرد العربيّة بظاهرة الاشتراك، فهي موجودة في سائر اللّغات. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ اللّفظ الـمشترك عند استعماله في كلام العرب لا يـحتمل إلا معنى واحدًا، يعين السّياق على معرفته وتنحية الـمعاني الأُخرى، وعليه فإنّ الـمشترك اللّفظيّ لا وجود له إلّا في الـمعجمات، أمّا في نصوص اللّغة واستعمالاتـها فلا وجود إلّا لـمعنى واحد من معاني هذا الـمشترك اللّفظي.

ولا شكّ في أنّ للتّوسع الـمجازيّ في الـمعنى أثر في تكثير دلالات اللّفظ، فالعين –مثلا- تُطلق على الباصرة، وعين الـماء، وعين الشّـيء، أي: نفسه، والـحاسدة، وثقب الإبرة، والـجاسوس، والسّحابة، والشّريف... ولعلّ الـمعنى اللّغوي الأصلي هو العين الـمبصرة، ولعل العرب سـمّت عين الـماء عينًا؛ لـخروج الـماء منها كخروج الدّمع من عين الإنسان أو الـحيوان، وسـمّت الـحسد بالعين؛ لأنّ عين الـحسود هي الـمتسبِّبة في هذه الإصابة، وسـمّت ثقب الإبرة عينًا؛ لأنّ النُّور يدخل منه كما يدخل من العين الـمبصرة...

واختصّت كتب الوجوه والنّظائر بالـمشترك اللّفظي فــي القرآن الكريم، ومعنى الوجوه والنّظائر **"**أنْ تكون الكلمة الواحدة، ذُكِرت في مواضع مِن القرآن على لفظ واحد وحركة واحدة، وأُريد بكلِّ مكان معنى غير الآخر، فلفظ كلّ كلمة ذُكِرت في موضع نظير للفظ الكلمة المذكورة في الموضع الآخر هو النّظائر، وتفسير كلّ كلمة بمعنى غير معنى الأخرى هو الوجوه. إذن فالنّظائر اسم للألفاظ، والوجوه اسم للمعاني**".**

ومن الألفاظ التي تصرَّفت على وجوه من الـمعاني في القرآن الكريـم لفظة **(**الوحي**)** فجاءت بـمعنى الإلـهام، والأمر، والإيـماء أو الإشارة، والوسوسة، والإعلام بالـمنام، والإرسال والتّدبير، وخلْق الغريزة، فقد قيل إنّ **(**أوحى**)** في قوله تعالى: **((**وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى**)):** ألـهمنا، وإنَّ **(**أوحى**)** في قوله تعالى: **((**بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَـهَا**)):** أَذن أو أَمَر، وإنّ **(**أوحى**)** في قوله تعالى: **((**فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**))** أَوْمَأَ أو رَمَز، وإنّ **(**يوحون**)** في قوله تعالى: **((**وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ**)):** يوسوسون، وإنّ **(**وحيًا**)** في قوله تعالـى: **((** وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا**)):** إعلامًا في الـمنام، وإنّ **(**أُوحي إِليّ**)** في قوله تعالى: **((**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)**):** أُرْسِل إليّ، وإنّ **(**أوحى**)** في قوله تعالــى: **((**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا**)):** دَبَّر، وإنّ **(**أوحى**)** فــي قوله تعالى: **((**وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ**))** ألـهمها بأنْ خَلَقَ الغريزة فيها.

ونذكر مِن الكتب الـمصنَّفة في الوجوه والنّظائر كتاب **(**الوجوه والنّظائر في القرآن الكريـم**)** لـهارون بن موسى القارئ –المتوفّى سنة200للهجرة-، وكتـاب **(**تـحصيل نظائر القرآن**)** للحكيم التّرمذيّ -المتوفّى سنة320للهجرة-، وكتاب**(**نزهة الأعين النّواظر في علم الوجوه والنّظائر**)** لابن الـجوزيّ -المتوفّى سنة 597للهجرة-**.**

**\*- الأضداد**

يُطْلق هذا الـمصطلح على اللّفظ حين يدلّ على معنيين متناقضين أو متعاكسين، كالـجون يُطْلق على الأسود والأبيض، والسُّدْفة تُطْلق على الضّوء والظّلمة، والشّوهاء على الفرس القبيحة والـجميلة، والبصير على الـمبصر والضّرير.**.**

وربّـما ظنّ ظانّ مِن الوهلة الأولى أنّ في التّضادّ إلباسًا وتعمية على السَّامع، فلا يَدْري أيَّ الـمعنيين أراد الـمتكلِّم. ويُـجيب أبو بكر بن الأنباري -المتوفّى سنة328للهجرة- عن ذلك بقوله: **"**كلام العرب يصحِّح بعضُه بعضًا، ويرتبط أوّله بآخره، ولا يُعْرَف معنى الخطاب منه إِلّا باستيفائه واستكمال جميع حروفه، فجاز وقوع اللّفظة على المعنيين المتضادّين؛ لأنَّها يتقدّمها ويأتي بعدها ما يدلّ على خصوصيّة أَحد المعنيين، ولا يُراد به في حال التّكلّم والإخبار إلّا معنى واحدًا**".**

وأوضح أبو الطّيّب اللّغويّ -المتوفّى سنة351للهجرة- الفرق بين الـمعنيين المتضادّين والـمعنيين الـمختلفين، فقال: **"**الأضداد: جمع ضدّ، وضدّ كلِّ شيء ما نافاه، نحو: البياض والسّواد، والسّخاء والبخل، والشّجاعة والجبن. وليس كلّ ما خالف الشّيء ضدًّا له، أَلَا ترى أنّ القوّة والجهل مختلفان وليسا ضدّين، وإنّما ضدّ القوّة الضّعف، وضدّ الجهل العلم**".**

وذهب كثير من اللّغويّين إلى وقوع هذه الظّاهرة في اللّغة، وخالفهم ابن درستويه -المتوفّى سنة347للهجرة-، ويُعَدّ مِن أبرز الـمنكرين للأضداد، فقد أنكر أنْ يكون **(**النَّوء**)** دالًّا على الارتفاع والسُّقوط، قال: **"**النَّوء، وهو الارتفاع بمشقّة وثقل، ومنه قيل للكوكب: قد ناء إذا طلع...وقد زعم قوم مِن اللُّغويّين، أَنّ النّوء السُّقوط أيضًا، وأنَّه من الأضداد، وقد أوضحنا الحجَّة عليهم في ذلك فـــي كتابنا (في إبطال الأضداد**)".** ويُعَدّ الآمديّ -المتوفّى سنة370للهجرة-من الـمنكـرين لوقوع الأضداد في اللّغة، فقد أَلَّف كتابًا في إنكار الأضداد سـمّاه **(**الحروف من الأُصول في الأضداد**).**

ويرى اللّغويّون القدامى أنّ التّضادّ نوع من أنواع الـمشترك اللّفظيّ، وتابعهم في ذلك كثير من الـمحدثين، ويبدو أنّه ليس مِن الصّواب عدّ التّضاد مِن الـمشترك؛ لأنّ أسباب نشأة الأضداد تـختلف في جوانب عديدة عن أسباب نشأة الـمشترك، يضاف إلى ذلك أنّ **"**الاختلاف أعمّ من التّضادّ، إذ كان كلّ متضادّين مختلفين، وليس كلّ مختلفين ضدّين**"**، وأنّ الألفاظ الـمشتركة ربّـما تعدّدت معانيها إلى العشرات في حين أنّ ألفاظ الأضداد لا تنصرف إلى أكثر من معنيين، ولعلّ ما صُــنِّف فيها من الكتب يدلُّ بوضوح على تفرّد هذه الظّاهرة واستقلالـها، ككتاب (الأضداد) لقُطْرُب –الـمتوفّى سنة206للهجرة-، وكتاب (الأضداد) للأصمعيّ -المتوفّى سنة216للهجرة-، وكتاب (الأضداد) للتَّوّزيّ -المتوفّى سنة233للهجرة-، وكتاب (الأضداد) لابن السِّكِّيت -المتوفّى سنة244للهجرة-، وكتـــاب (الأضداد) لأبي حاتـم السّجستانيّ -المتوفّى سنة255للهجرة-، وكتـــاب (الأضداد) لأبي بكر بن الأنباريّ، وكتاب(الأضداد مِن كلام العرب) لأبي الطّيب اللّغويّ.

وثـمّة أسباب أدّت إلى ظهور الأضداد في اللّغة نذكر منها:

أ-اختلاف لـهجات القبائل العربيّة**:** وهو أَنْ تُطْلِق إحدى القبائل اللّفظ على معنى معيّن، وتطلق قبيلة أُخرى اللّفظ نفسه على الـمعنى النّقيض، فالسُّدْفة في لـهجة قيس تعني الضَّوء، والسُّدْفة في لـهجة تـميم تعني الظُّلْمة، ولا يـمكن أنْ تضع قبيلة واحدة معنيين متضادّين للفظ واحد، قال أبو بكر بن الأنباريّ: **"**إذا وقع الـحرف على معنيين متضادّين، فمُحال أنْ يكون العربيّ أوقعه عليهما بـمساواة منه بينهما، ولكنّ أحد المعنيين لـحيّ من العرب، والـمعنى الآخر لـحيّ غيره**".**

ب-عموم الـمعنى الأصليّ**:** وهو أنْ يكون معنى اللّفظ عامًّا، ثـمّ يتحدّد بـمرور الزّمن بـمعنيين متضادّين، كلفظة **(**الطّرب**)** التي عُدَّت من الأضداد، يقال: طَرِبَ إذا فَرِحَ، وطَرِبَ إذا حزن، وتدلّ **(**الطّرب**)** في الأصل على الـخِفَّة التي تلحق الإنسان في وقت فرحه وحزنه، فيقال: قد طَرِب إذا استخفّ.ومن ذلك أيضًا **(**الـمَأْتَـم**)** إذ عُدَّت من الأضداد، يقال للنِّساء الـمجتمعات في الـحزن مأتـم، وللمجتمعات في الفرح مأتـم. وتدلّ **(**الـمأتـم**)** في الأصل على مـجتمع النِّساء والرِّجال في الـحزن والسُّرور، ثـمّ تـخصّص اللَّفظ بالاجتماع عند الـموت.

ت-التَّفاؤل**:** يُعَدّ سببًا آخر من أسباب نشوء الأضداد، فالعرب هنا فرّت من التَّشاؤم، وجنحت إلى التّفاؤل، فأطلقت **(**البصير**)** على الأعمى، و**(**السَّليم**)** علـى اللَّدِيغ، و**(**الـمَفازة**)** على الصّحراء، و**(**النَّاهل**)** على العطشان، وكلّ هذا من أجل التّفاؤل.

ث-الـخوف من الـحسد**:** وهو عامل نفسيّ كالذي قبله، فهم يتطيَّرون من الـحسد؛ لذلك أطلقوا على الفرس الـجميلة **(**شوهاء**)،** قال أبو حاتـم السِّجستانيّ: **"**لا أظنُّهم قالوا للجميلة شوهاء إلّا مخافةَ أنْ تصيبها عين**".** وأطلقوا على حديد البصر **(**أعور**).**

ج-التَّهكُّم**:** وهو أنْ يلجأ العربيّ إلى التّعبير عن الشّيء بكلمة مضادة من أجل الـهُزْء والسُّخْرية، فـــ**(**القَشِيب**)** تُطْلق في الغالب على الثَّوب الـجديد، وربـّما تُطلق على الثَّوب القديـم البالي؛ للتَّهكُّم، و**(**العاقل**)** يطلقونـها على الـجاهل؛ للتَّهكُّم.

ح-الاتّفاق في الصّيغة الصّرفيّة**:** مثال ذلك لفظة **(**الكَرِيّ**)** التي عُدَّت من الأضداد؛ لأنّـها تُطْلق على الـمُكْتَرِي والـمُكْتَرَى منه. ولعلّ الذي سوّغ القول بضدية هذه اللفظة أنَّ صيغة (فَعِيل) التـي جاءت عليها **(**الكَرِيّ**)** تدلّ مرّة على (مُفْعِل)، وتــدلّ مرّة أُخـرى علـى (مُفْتَعِل)، ذلك أنّ **(**الكَرِيّ**)** تقال لـمن يُكْرِي دابّته، يقال: أَكْرَى دابَّتهُ، فهو مُكْرٍ وكَرِيّ، فالكَرِي هنا فَعِيل بـمعنى مُفْعِل، ويُطْلق لفظ **(**الكَرِيّ**)** أيضًا علـــى الـمُكْتَرِي، وهــو الـذي يَكْتَرِي الدَّابَّة، والكّرِيّ هنا فَعِيل بـمعنى مُفْتَعِل.

خ-التّراكيب**:** مثال ذلك **(**رَغِبَ فيه**) و(**رَغِبَ عنه**)** بـمعنى أراد الشَّيء ولـم يرده، ومن الواضح أنّ معنى الضّديّة مكتسب مــن وجود حرف الـجرّ وليس من اللّفظ نفسه، وهذا ونظائره ينبغي أن يـخرج مـمّا عُدّ من الأضداد؛ لأنّ **(**في**)** ليس ضدًّا لــ**ـ(**عن**)،** فضلًا عن غياب الـمعنى فيهما خارج التّركيب.

**\*- الترادف**

هو دلالة الالفاظ الـمختلفة على الـمعنى الواحد، فالأسد، والـهِزَبْر، والضِّرْغام، واللَّيْث تدلّ جـميعها على هذا الـحيوان الـمعروف. والسَّيف، والـمُهَنَّد، والصَّارم، والـحسام تدلّ جـميعها على آلة الـحرب الـمعروفة. وأَسْهَبَ، وأَطْنَب، وأَفْرَط، وأَسْرَف جـميعها بـمعنى واحد.

وقد اختلف اللّغويّون القدامى إزاء هذه الظّاهرة، فأقرّها أكثرهم، وصنّفوا فيها كتبًا، ككتاب **(**ما اختلف ألفاظه واتفقت معانيه**)** للأصمعيّ-المتوفّى سنة216للهجرة-، وكتـاب **(**الألفاظ**)** لابن السّكّيت -المتوفّى سنة244للهجرة-، وكتــاب **(**الألفاظ الكتابيّة**)** لعبد الرّحـمن الـهمذانيّ -المتوفّى سنة320للهجرة-، وكتاب **(**جواهر الألفاظ**)** لقُدامة بن جعفر –المتوفّى سنة337للهجرة-، وكتاب **(**الألفاظ الـمترادفة الـمتقاربة الـمعنى**)** للرّمّانيّ –المتوفّى سنة384للهجرة.

وأنكر وقوع التّرادف في اللّغة جـماعة من اللّغويّين، لعلّ أشهرهم ابن الأعرابيّ –المتوفّى سنة231للهجرة- الذي يقول : **"**كلّ حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد، في كلِّ واحد منهما معنى ليس في صاحبه، ربّـما عرفناه فأخبرنا به، وربّـما غمض علينا فلم نُلزم العرب جهله**".** وتابعه تلميذه ثعلب -المتوفى سنة291للهجرة- في ذلك فقال: "إنّ كلّ ما يُظن من المترادفات فهو من المتباينات التي تتباين بالصّفات كما في الإنسان والبَشَر، فإنّ الأوّل موضوع له باعتبار النِّسْيان أو باعتبار أنّه يُؤْنس، والثّاني أنّه بادي البشرة"**.**

ومن هذه الطّائفة أيضًا ابن درستويه –المتوفّى سنة347للهجرة-،وابن فارس -المتوفّى سنة395للهجرة-،وأبو هلال العسكري -المتوفّى سنة395للهجرة-. واشترط الدّارسون الـمحدثون الاتّفاق في معنى اللّفظتين اتفاقا تامًّا، والاتّـحاد في البيئة اللّغويّة والعصر، وأنْ لا يكون أحد اللّفظين نتيجة تطور صوتيّ.

وثـمّة أسباب أدّت إلى نشوء وتكاثر الـمترادف في اللّغة، نذكر منها:

أ-اختلاف اللّهجات العربيّة: فـ(السِّكّين) في لغة عامّة العرب، و(الـمُدْية) في لغة قبيلة دَوْس، وروي أنّ الرّسول -صلّى الله عليه وآله وسلّم- طلب سِكِّينًا كانت بالقرب من أبي هريرة الذي يقول: "لـم أعرف ماذا أراد بكلمة (سِكِّين)، فلمَّا رأيته ينظر إليها، عَلِمْتُ أنّه يريدها، فقلت له: آلـمُدْية تريد؟ ثـم ناولته إيَّاها"**.**

ب- انتقال النّعوت بـمرور الزَّمن إلى الاسـمية وفقدانـها صفاتـها**:** وهــو أنْ يكون للشّــيء الواحد في الأصل اسم واحد، ثـمّ يُوصَف بعد ذلك بصفات مـختلفة دالة عليه، ثـمّ تُعَدّ أسـماءً له مع كثرة الاستعمال وطول الزّمن، كالأسد وصفاته، والسّيف وصفاته، فقد ذكر ابن خالويه -المتوفّى سنة370للهجرة- في مـجلس سيف الدّولة أنّه يـحفظ للسّيف خـمسين اسـمًا، وذكر أبو عليّ الفارسيّ -المتوفّى سنة377للهجرة- أنّه لا يـحفظ له إلّا اسـمًا واحدًا وهو السّيف، قال ابن خالويه: فأين الـمُهَنَّد، والصّارم، وكذا، وكذا؟ فقال أبو عليّ: هذه صفات.

ت-الاقتراض من اللّغات الأجنبية**:** فقد اقترضت العربيّة مِن الفارسيّة الدِّمَقْس والإستبرق للحرير، والبُهْرج للباطل، والبَخْت للحظِّ، وذلك بعد تعريبها.

ث-التطور الصوتي**:** فقد عدّوا لفظتي أسود **(**حالك**)،** وأسود **(**حانك**)** مـــن التّرادف. والصّواب أنّ اللّفظين أعني **(**حالك**)،** **(**حانك**)** غير مترادفين؛ لأنّـهما فــي الأصل لفظ واحد حصل فيه إبدال، ومِن العرب مَنْ تـَمَسَّك باللّفظ الأصيل، ومنهم مَنْ جنح إلى ما حصل فيه الإبدال. وشرط التّرادف أنْ يُسْتعمل اللّفظان اللّذان يدلان على معنى واحد في بيئة لغوية واحدة وعصر واحد وهذا غير متحصِّل في اللّفظين، فقد قيل "لأَعرابي: أَتقول: مثل حُلْك الغراب أو حُنْكه؟ فقال: لا أَقول حُلْكه"**.** أي إنّ الذي يقول: حُلْك لا يقول: حُنْك، وإنّ الذي يقول: حُنْك، لا يقول: حُلْك، فهذا اللّفظ مستعمل في لـهجة، وذاك في لـهجة أُخرى، فهما ليسا مِن التَّرادف في شيء؛ لاختلاف البيئة اللّغوية.

ج-تدوين أصحاب الـمعجمات ألفاظًا كثيرة كانت العرب قد هجرت استعمالـها.

ولابدّ من التّنبيه على أنّ هناك مترادفات نصّت كتب اللّغة على أنّـها مِن هذا الباب، لكنّ تدبّر الـمعنى بدقة يهدي إلى وجود فروق لغوية دقيقة بينها،ولعلّه مِن الأوفق أنْ تعدَّ هذه الألفاظ متقاربة الـمعاني وليست متطابقة تـمامًا، وكان أبو هلال العسكريّ قد عُنِي بذكر الفروق اللّغوية بين اللّفظين تأكيدًا لـمذهبه في رفض القول بوقوع التّرادف في اللّغة، قال في مقدمة كتابه (الفروق في اللّغة): "كلّ اسـمين يـجريان على معنى من الـمعاني وعين من الأعيان في لغة واحدة، فإنّ كلَّ واحدٍ منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر، وإلَّا لكان الثَّاني فضلًا لا يُـحتاج إليه"، وعليـه فإنّـه علــى رأيه "لا يـجوز أنْ يكون اللّفظان يدلّان على معنى واحد؛ لأنّ في ذلك تكثيرًا للّغة بلا فائدة فيه"**.** فهناك فرق بين الـمَلِك والـمالك فالأوّل أعمّ من الثّاني؛ لأنّ ما تـحت حِياطة الـمَلِك أكثر مـمّا تـحت حِياطة الـمالك. وهناك فرق بين الـجلوس والقعود؛ لأنّ الـجلوس انتقال مِن سفْل إلى عُلُوٍّ وعليه يقال لـمَنْ هو نائم: اجلس، والقعود انتقال مِن عُلُوٍّ إلى سفْل وعليه يقال لـمَن هو قائم: اقعد. والفرق بين النَّفْش والـهَمَل أنّ النّفْش لا يكون إلّا باللّيل، والـهَمَل يكون ليلًا ونـهارًا. والفرق بين البيان والتِّبيان هو أنّ البيان جعل الشَّيء مُبَيَّنًا بدون حُجَّة، والتِّبيان جعل الشَّيء مُبَيَّنًا مع الـحجّة. والفرق بين الرّسول والنَّبيّ أنّ الرّسول أَخصّ مِن النَّبيّ؛ لأنَّ كـلَّ رسول نبيّ وليس كـلّ نبي رسولًا. والفرق بين الـحَسَد والغِبْطة أنَّ الـحَاسد يتمنّى زوال النِّعمة عن صاحبها وإنْ لـم يُرِدْها لنفسه، والغابِط يتمنّى أنْ يكون له مثلُ ما للآخرين وأنْ يدوم للآخرين ما هم فيه من النِّعمة. والفرق بين الـخضوع والـخشوع أنَّ الـخضوع يـكون فـــي البدن، والـخشوع فــي البدن والبصر والصّوت،قال تعالى: **((**وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَـمْسًا**))**. والفرق بين التَّدبّر والتَّفكّر أنَّ التَّدبّر تصرّف القلب بالنَّظر في العواقب، والتّفكّر تصرّف القلب بالنَّظر إلى الدّلائل.

**\* الاشتقاق**

يعدّ الاشتقاق وسيلة مهمة مِن وسائل نـموّ العربيّة، فعربيّتنا توصف بأنّـها لغة اشتقاقيّة، فبالاشتقاق تكثر الـمفردات وتتسع اللّغة ويزداد ثراؤها، وهكذا تتمكّن من التّعبير عن الـجديد مِن الأفكار والـمُسْتَحْدَث من وسائل الـحياة.

وقد عُنِـي اللُّغويُّون القدامى بـهذا الـموضوع فصنّفوا فيه كتبًا، نذكر منها كتاب (الاشتقاق) للأصمعيّ –المتوفّى سنة216للهجرة-، وكتاب (الاشتقاق) لابن السَّرَّاج –المتوفّى سنة316للهجرة-، وكتاب (الاشتقاق) لابن دريد -المتوفّى سنة321للهجرة-، وكتاب (اشتقاق أسـماء الله) للزَّجَّاجيّ –المتوفّى سنة337للهجرة-.

وللاشتقاق أنواع نذكر منها:

**1-الاشتقاق الصّغير:**

وهو أنْ تشتقّ مِن الفعل (عَلِمَ) -مثلًا- ألفاظًا أُخرى نـحو: يَعْلَمُ، وأَعْلَمُ، وعالِم، ومعلوم، وعليم، وعَلَّام، وتَعْليم، واستعلام، ومُعَلِّم**... .**

ومذهب جـمهور العلماء أنّ هذا الاشتقاق لا بدَّ له مِن سند في نصوص اللُّغة يبرهن على أنّ العرب قد استعملوا مثله أو نظيره، وأنّ هذا النَّظير كثير الورود في كلامهم الـمرويّ عنهم.

ويُسَمَّى هذا الاشتقاق أيضًا بالاشتقاق الأصغر، والاشتقاق العامّ، والاشتقاق الصّرفيّ، قال ابن جنّي –المتوفّى سنة392للهجرة- في كتابه الـخصائص: **"**فالصَّغير ما فـي أيدي النَّاس وكتبهم، كَأَنْ تأخذ أصلًا مـــن الأُصول فتتقرَّاه، فتجمع بين معانيه، وإن اختلفت صيغه ومبانيه، وذلك كتركيب (س ل م) فإنّك تأخذ منه معنى السَّلامة في تصرّفه نـحو سلم، ويسلم، وسالـم، وسلمان، وسلمى، والسّلامة... فهذا هو الاشتقاق الأصغر**".**

وقد كان الكوفيُّون يذهبون إلى أنّ الفعل هو أصل الـمشتقّات، في حين ذهب البصريّون إلى أنّ الـمصدر هو أصل الـمشتقّات والفعل مشتقّ منه؛ لأنّ الفعل يتضمّن معنى الـمصدر وزمانًا، أي: يتضمّن الـحدث والزَّمن وهذه الزِّيادة تقتضي أنْ يكون متأخِّرًا عن الـمصدر، وعليه فهم يرون أنَّ الضَّرْب هو الأصل، ومنه اشتق ضَرَبَ، ويَضْرِبُ، واضْرِبْ، وضَارِب، ومَضْرُوب، ومَضْرَب، وضَرَّاب... ويـجوز عند هؤلاء الاشتقاق من أسـماء الأعيان كاستحجر الطّين، واستأسد الرّجل، وتشيطن الصّبيّ، فهذه الأفعال مشتقة عندهم من الـحجر، والأسد، والشَّيطان.

ولكثرة استعمال الاشتقاق الأصغر (الصّرفيّ أو العامّ) أجاز مـجمع اللّغة العربيّة بـمصر استعماله قياسًا عند الضّرورة.

**2-الاشتقاق الكبير :**

وهو أنْ تأخذ أصلًا مِن الأُصول الثّلاثيّة، فتعقد عليه وعلى تقاليبه السِّتَّة معنى عامًا، ويسمِّيه ابن جنـي الاشـــتقاق الأكبـر نـحو (ق س و)، و(ق و س)، و(و ق س)، و(س و ق)، وأمّا (س ق و) فهو مهمل، وجـميع هذه التّقليبات يـمكن رَدُّها إلى القُوَّة والاجتماع.

فمنها (القسوة)، وهي: شدَّة القلب واجتماعه.

ومنها (القوس): سُـميت كذلك؛ لشدّتـها واجتماع طرفيها.

ومنــها (الوَقْس)، وهــو: ابتداء الـجَرَب، سُـمّي بذلك؛ لأنّه يـجمع الـجِلد ويُقْحِله، أي: يـجعله يابسًا. ومنــها(الوَسْق)، قال تعالى: ((واللَّيلِ وما وَسَق))، أي: جَمَع.

ومنها (السَّوْق): سُـمِّي به؛ لأنّه استحثاث، وجـمع للمَسُوق بعضه إلى بعض.

ولا بدّ من التّنبيه على أنّ تقليب اللّفظ بـهذه الطَّريقة كان قد سبق إليه الـخليل -المتوفّى سنة175للهجرة- في معجمه (العين)، فقد توخّـى حصر الـموادّ اللّغويّة؛ لـمعرفة الـمستعمل منها والـمهمل. وأشار ابن جني إلى أنّ رَدَّ التَّقليبات إلى معنى واحد غير مطرد دائمًا، فهو يقول:"واعلم أَنَّا لا نَدَّعي أنَّ هذا مستمرّ في جـميع اللغة".

**-القلب المكانيّ:**

وُضِعَت هذه الظّاهرة في ضمن الاشتقاق الكبير، وتُسَمّى القلب اللّغوي أيضًا. وعُرِّفت بأنّـها انتقال حرف أصليّ مِن مكانه في الكلمة إلى مكان حرف أصليّ آخر في الكلمة نفسها، كما في: (جَبَذَ**)** والأصل (جَذَبَ**)**، و(صَاقِعَة**)** والأصل **(**صَاعِقَة**)**، و(ٱمْضَحَلَّ**)** والأصل (ٱضْمَحَلَّ**)، و**(ٱكْرَهَفَّ**)** والأصل (ٱكْفَهَرَّ**)...**

وتُعَدُّ ظاهرة القلب الـمكاني ظاهرة واضحة في اللّغة العربيّة لا يصحُّ إنكارها، ونـحن نلحظها في لغة الأطفال الذين لا يستطيعون نطق الألفاظ الكثيرة التي يسمعونـها، فيقلبون بعض حروفها مكان بعضها الآخر.

وتتمثّل هذه الظّاهرة واضحة في بعض اللهجات، فالعامّة في مصر يقولون: (مَرْسَح) بدلًا من (مَسْرَح)، وأهل الموصل في العراق يقولون: (دَحِّق) بدلًا من (حَدِّق)، و(مِعْلَقَة) بدلًا من (مِلْعَقَة).

والأسباب التي أدّت إلى حدوث القلب المكانيّ، هي: ميل المتكلّمين إلى التّخفيف اللّفظيّ، والتّوهّم السّمعيّ؛ بسبب ضعف الإصغاء، وتدافع الحروف على اللِّسان والخطأ في إخراجها، وعيوب النّطق عند الأطفال التي تتسرّب إلى لغة الكبار من غير تصحيح.

وهناك شروط يُتَوَصَّل بها إلى أنّ أحد اللّفظين أصل والآخر مقلوب منه، أو أنّهما أصلان، وليس أحدهما مقلوبًا من صاحبه.

وأوّل هذه الشّروط أنْ يكون أحد اللّفظين أكثر استعمالًا من الآخر، فيكون الأكثر استعمالًا هو الأصل والآخر مقلوبًا منه، فإنّ (رَعَمْلِي) مقلوب من (لَعَمْرِي)؛ لكون الأخير أكثر استعمالًا.

وثاني هذه الشّروط أنْ يكون أكثر التّصريف واقعًا على أحد اللّفظين، ويكون اللّفظ الآخر أقلّ تصرّفًا، فإنّ (شواعي) مقلوب من (شوائع)؛ لكون الأخير أكثر تصرّفًا، فيقال: شاع يَشِيع شُيوعًا، ومنه اشتقّ (شوائع).

وثالث هذه الشّروط أنْ يكون في أحد اللّفظين ما يشهد له بأنّه مقلوب من الآخر، فإنّ (أَيِسَ) مقلوب من (يَئِسَ)، إذ لو لـم يكن مقلوبًا لوجب إعلاله؛ لِتَحَرّك الياء وانفتاح ما قبلها.

فإذا لـم يتحقّق واحد من هذه الشّروط حكمنا بأنّ كلّ واحد من اللّفظين أصل بنفسه، وكان ابن جنّي -المتوفّى سنة392للهجرة- يعتمد تصريف اللّفظين سبيلًا إلى تـحديد أصالتهما، أو حدوث القلب بينهما، فإذا كان تصرّف اللّفظين واحدًا حكمنا بأنّـهما أصلان، ليس أحدهـما مقلوبًا من الآخر، قال ابن جني في كتابه الـخصائص: "ومـمّا تركيباه أصلان لا قلبَ فيهما، قولـهم: جذب وجبذ، ليس أحدهـما مقلوبًا عن صاحبه، وذلك أنّـهما جـميعًا يتصرّفان تصرّفًا واحدًا، نـحو: جذب يـجذب جذبًا، فهو جاذب، والـمفعول مـجذوب، وجبذ يـجبذ جبذًا، فهو جابذ، والـمفعول مـجبوذ".

ولـم تتّفق أحكام الـمدرستين على ما وجدوه من أمثلة لظاهرة القلب الـمكانيّ، قال أبو جعفر النّحّاس -المتوفّى سنة338-: "القلب الصّحيح عند البصريّين مثل: (شاكي السّلاح، وشائك)، و(جُرُف هارٍ، وهائر)، وأمّا ما يسـمّيه الكوفيّون القلب، نـحو: (جذب، وجبذ) فليس هذا بقلب عند البصريّين، وإنّـما هـما لغتان". فكأنّ البصريّين قصروا القلب الـمكانيّ على ما حصل في الـمعتل والـمهموز.

ولتوضيح الـمثال الـمذكور نقول: إنّ لفظ (هارٍ) في قوله تعالى: ((أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ على شَفَا جُرُفٍ هارٍ)) أصله: (هائر)، وقد خفَّفت العرب هـمزتـها بإبدالـها ياءً، فصار اللّفظ (هاير)، ثـمّ حدث قلب مكانيّ في هذه اللّفظة لتتحول إلى (هاري) بزنة (قاضي)، وعندئذٍ تُستعمل استعمال الـمنقوص، فيقال: (هارٍ).

**3-الاشتقاق الأكبر:**

وهو أنْ يقع بين الـمشتقّ والـمشتقّ منه تناسب في مـخرج الأصوات، كما في: (مَدَحَ، ومَدَهَ)، و(بُعْثِر، وبُـحْثِر)، و(الثُّوم، والفُوم)، و(تَلَعْثَم، وتَلَعْفَم)، و(سَقْر، وصَقْر)، و(لازِب، ولازِم)، و(سِراط، وصِراط)...

ويلحظ أنّ هذا النّوع من الاشتقاق يقع غالبًا بسبب وجود علاقة صوتيّة وثيقة بين الصّوتين الـمُبْدَل والـمُبْدَل منه، كأنْ يكونا متقاربين في المخرج، أو يكونا متّفقين في الصِّفات، أو غير ذلك مـمّا يسوّغ الإبدال بينهما.

ولابدّ من التّنبيه على أنّ تغيّر الصّوت ربّـما صحبه تغيير جزئيّ في الـمعنى يناسب ذلك الصّوت، غير أنّ الدّلالة العامّة تبقى واحدة، فدلالة القطع -مثلًا- يـمكن أنْ نَـحُسَّها في الأفعال: قَطَّ، وقَطَعَ، قَطَفَ، وقَطَمَ، لكنّ اختلافًا جزئيًا وقع في الـمعنى بين هذه الـمواد سببه تغيّر الصّوت؛ ليتناسب الصّوت مع الـمعنى.

وقد وقف ابن جني -المتوفّى سنة 392للهجرة- عند الـمعاني الـمتغيّرة باختلاف الصّوت، قال في كتابه (الـخصائص): "فأمّا مقابلة الألفاظ بـما يُشاكِل أصواتَـها مِن الأحداث فباب عظيم واسع، ونَـهْج مُتْلَئِبّ عند عارفيه مأموم. وذلك أنّـهم كثيرًا ما يـجعلون أصوات الـحروف على سَـمْت الأحداث الـمُعَبَّر بـها عنها، فيعدّلونـها بـها ويـحتذونـها عليها. وذلك أكثر مـمّا نُقَدِّره، وأضعاف ما نستشعره، فمن ذلك قولهم: (خَضِمَ، وقَضِمَ)، الخـَضْم لأكل الرَّطْب كالبِطِّيخ والقِثَّاء، وما كان نـحوها من الـمأكول الرّطب. والقضم للصّلْب اليابس، قَضَمَت الدّابّة شعيرها...فاختاروا الـخاء لرخاوتـها للرّطب، والقاف لصلابتها لليابس؛ حذوًا لـمسموع الأصوات على مـحسوس الأحداث. ومن ذلك قولـهم: النَّضْح للماء ونـحوه، والنَّضْخ أقوى من النَّضْح، قال الله سبحانه: ((فيها عَيْنانِ نَضَّاخَتان))، فجعلوا الـحاء لرقّتها للماء الضّعيف، والـخاء لغلظها لـِما هو أقوى منه".

4-**الاشتقاق الكُبَّار :**

ويُعْرف بالنَّحْت، وأصله أنْ تُؤْخذ أصوات كلمة من جملة ذات دلالة كاملة، فتدلّ تلك الكلمة المُنْتَزَعة على دلالة الجملة بأكملها، وهكذا ينحت العربيّ كلمة واحدة من كلمتين أو أكثر بعد اختزال عدد حروفها.

وكان الخليل -المتوفّى سنة175للهجرة- قد نَبَّه على هذه الظَّاهرة، فأشار إليها في معجمه العين، وعدَّ الثَّعالبيّ -المتوفّى سنة429للهجرة- النَّحْت جنسًا مِن الاختصار، وأشار إلى مـجموعة من الكلمات الـمُنْتَزَعَة من الـجمل للتَّعبير عن مدلولها، فـ(البَسْمَلَة) مأخوذة من (بسم الله الرّحمن الرّحيم)، و(الـحَوْقَلَة) مأخوذة من قولهم: (لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله)، و(الطَّبْقَلَة) مأخوذة من قولهم: (أَطالَ اللهُ بقاءَك)، و(الدَّمْعَزَة) مأخوذة من قولهم: (أَدَامَ اللهُ عِزَّكَ)، و(الـجَعْلَفَة) مأخوذة من قولهم: (جُعِلْتُ فِداك). وهكذا يقال: بَسْمَلَ الرَّجل، وحَوْقَلَ، وحَـمْدَلَ، وحَيْعَلَ، وطَبْقَلَ، ودَمْعَزَ، وجَعْلَفَ، وهذا هو النَّحت الفعليّ.

وأمّا النّحت الاسـميّ، فهو: أنْ تنحت من كلمتين اسـمًا مثل: (جَلْمُود)، فهو مأخوذ من (جَـمَدَ ،وجَلَدَ)، الـجَلْمُود: الصَّخْر.

ويكون النّـحْت النَّسَبِيّ في الأعلام الـمُركَّبة، مثل: عبد شـمس، وعبد الدّار، وتيم اللّات، وعبد الله، فنقول: بعد النَّحْت (عَبْشَمِيّ)، و(عَبْدَرِيّ)، و(تَيْمُلِيّ)، و(عَبْدَرِيّ).

**\*الإتباع اللّفظيّ:**

يراد بالاتباع اللّفظيّ: أنْ تَتْبـَعَ الكلمةُ الكلمةَ على وزنـها ورويِّها إشباعا وتأكيدًا، نـحو: (حَسَنٌ بَسَنٌ)، و(حارٌّ يارٌّ)، و(صَقِرٌ مَقِرُ)[[2]](#footnote-2)، و(شِذَرٌ مِذَرٌ).

وقد وقف اللّغويون القدامى عند هذه الظّاهرة في أثناء مصنفاتـهم كابن دريد -المتوفّى سنة321للهجرة- في معجمه جمهرة اللّغة، وأبي عليّ القالي -المتوفّى سنة356للهجرة- في كتابه في الأمالي، وابن سيده المتوفّى سنة458للهجرة- في معجمه الـمخصّص، ومنهم مَن أفرد لـها كتابًا مستقلًّا؛ ككتاب (الإتباع) لأبي الطّـيّب اللّغويّ المتوفّى سنة351للهجرة-، وكتاب (الإتباع والـمزاوجة) لابن فارس -المتوفّى سنة395للهجرة-

وكان أبو عبيد -المتوفّى سنة224للهجرة- يذهب إلى أنّ الإتباع "إنّـما سُـمِّيّ إتباعًا؛ لأنّ الكلمة الثّانية إنّـما هي تابعة للأولى على وجه التّوكيد لـها، وليس يُتَكَلَّم بـها منفردة، فلهذا قيل: اتباع".

ويرى ابن قتيبة -المتوفّى سنة276للهجرة- أنّ الإتباع في الأصل توكيد بتكرار اللّفظ، لكنّ العرب كرهت أنْ يتطابق اللَّفظان؛ لذلك أبدلت صوتًا من أصوات اللَّفظ الثّاني بصوت آخر، قال: "وربَّـما جاءت الصِّفة فأرادوا توكيدها، واستوحشوا مِن إعادتـها ثانية؛ لأنَّـها كلمة واحدة، فغـيّروا منها حرفًا، ثـمَّ أتبعوها الأُولى، كقولـهم: (عطشان نطشان)، كرهوا أنْ يقولوا: (عطشان عطشان) فأبدلوا مِن العين نونًا".

ويـمكن تشبيه اللّفظ التّابع مـمّا ليس فيه معنى في نفسه ولايرد وحده في اللّغة بالعربة التي يـجرّها حصان، أو التي تـجرّها سيّارة، أو التي يـجرّها قطار، فالـحصان والسّيّارة والقطار يُشْبِه كلّ واحد منها اللَّفظ الـمتبوع، فكلاهـما يـجرّ تابعه إلى الـجهة التي يريدها، فالأوّل يسحب العربة إلى الـجهة التي يريدها قائد الـحصان، أو السَّـــيَّارة، أو القطار، والثّاني يوجّه التّابع إلى الـمعنى الذي يرغب الـمتكلِّم في تقويته وتأكيده عند الـمتلقّي.

ولابأس بالتّنبيه على أنّ الانسجام الصّوتيّ بين التّابع والـمتبوع في أُذن الـمتلقّي يكمن وارءه غرض مهم يرمي إليه الـمتكلِّم، فهو يسعى إلى تقوية الـمعنى وتعضيدة فقد "روي أنَّ بعض العرب سُئِل عن ذلك، فقال: هو شيء نَـتِد به كلامنا".

ولانستطيع القطع بـخلو الألفاظ التّابعة من أيّ مضمون، فليس بعيدًا أنْ تكون لـها "معان لـم تتجلَ أمام النَّاس حقائقها؛ لانتسابـها إلى لـهجات عربية شتّى".

وإذا أخذنا بالرّأي الذي يذهب إلى أنّ الكلمة التّابعة كانت في البدء لا تـحمل دلالة معينة فإننا سنسلم بأنّ مـجاورتـها للكلمة الـمتبوعة أضفى عليها معنى الكلمة الـمتبوعة بالتّدريج.

ويقع الإتباع في الأسـماء والأفعال:

وقد ذهب أبو الطّــيّب اللّغويّ إلى أنّ الإتباع الاسـمي قسمان:

الأول: أنْ يكون التّابع متّصلًا بالـمتبوع، وليس له معنى، ولا يـجيء منفردًا، نحو: (حَسَنٌ بَسَنٌ)، و(حارٌ يارٌ)، ويكثر أنْ تكون الكلمة التَّابعة مبدوءة بـميم، نـحو: (صَقِرٌ مَقِرٌ)، و(شِذَرٌ مِذَرٌ).

والثّاني: أنْ يكون التّابع متّصلًا بالـمتبوع، وله معنى، ولا يـجيء منفردًا أيضا، نحو: (عطشانُ نطشانُ)، و(شيطانٌ ليطانٌ).

وذهب أبو الطَّيِّب اللُّغويّ إلى جواز الفصل بين التَّابع والـمتبوع بالواو إذا كانا فعلين، نحو: (حَيَّاك وبَيَّاك) في قولـهم: (حَيَّاك اللهُ وبَيَّاك)، و(يَلِيق ويَعِيق) في قولـهم: (ما يَلِيق بك الـخيرُ وما يَعِيق)، في حين يرى غيره من اللّغويّين أنَّ الكثير في الإتباع أنْ يكون بغير واو العطف، والقليل فيه أنْ يكون بواو العطف؛ لذلك اختلفوا في كون (بَيَّاك) إتباعًا لـ(حَيَّاك) في حديث: أنّ الـملائكة قالت لآدم -عليه الصّلاة والسّلام-: (حَيَّاك الله وبَيَّاك)، فمعنى (حَيَّاك): سَلَّمَ عليك.

وذهب بعضهم إلى أنّ (بَيَّاك) اتباع لـ(حَيَّاك).

وأمَّا الذين لـم يقولوا بالإتباع فيها، فقد ذكروا أنّ (بَيَّاك) معناه: بَوَّأَك منزلًا عظيمًا ثـمّ خَفَّفوا الـهمزة، وأبدلوا الواو ياءً.

وقيل إنّ معنى (بَيَّاك) قَــرَّبَك، وأنشدوا:

بَــيَّـا لـهم إذْ نَزَلُوا الطَّعاما

أي: قَرَّبَه.

وقيل إن معنى (بَيَّاك) أَضْحَكَكَ؛ لأنَّ آدم -عليه السّلام- حزن زمنًا على ولده هابيل فأَوحى الله -تعالى- إليه: (حَيَّاك الله وبَيَّاك)، أي: أَضْحَكَكَ.

واختلف اللّغويّون في كون (بِـلٌّ) إتباع لـ(حِلٌّ) في حديث العبّاس في شأن زمزم: (لَسْتُ أُحِلُّها لِـمُغْتَسِلٍ، وهي لشاربٍ حِلٌّ وبِـلٌّ)، فقد ذهب بعضهم إلى أنّ (بِـلٌّ) إتباع لـ(حِلٌّ).

وأمّا الذين لـم يقولوا بالإتباع، فقد ذكروا أنّ معنى (بِـلٌّ): شفاء، مِن قولـهم: بَلَّ مِن مرضه وأَبَلَّ.

وقيل: إنّ (بِـلٌّ) هو الـمباح بلغة حِـمْيَر.

ولايكون اللّفظ عندهم إتباعًا؛ لـمكان الواو.

**\*التَّعريب:**

يُرادُ بتعريب الاسم الأعجميِّ: أنْ تتفوهَ به العربُ على مناهجها في الكلامِ، تقولُ: عَرَّبَتْهُ العربُ وأعْرَبَتْهُ أيضًا، وقيلَ في تعريفِ الـمُعَرَّبِ أيضًا: هو ما استعملتهُ العربُ مِنْ الألفاظِ الـموضوعةِ لـمعانٍ في غير لغتها.

أي إنَّ العربَ طَوّعتِ اللَّفظَ الأجنبي بألسنتها، فَغَـيَّرَتْ فيه بالزِّيادة، أو النُّقصان، أو الإبدال في الأصوات، بـحيث يـجري بـحسب أَبْنيتها ويوافق أصواتـها، حتّى يغدو علــى صورةٍ شبيهةٍ بصورة الألفاظِ العربيّة.

وقد نالَ التَّعريبُ عنايةً واضحةً مِنَ العربِ بسبب أهـمّـيَّته لـهم؛ لاتّصالـهم قديـمًا بالأممِ الـمجاورةِ، واطّلاعهم علــى الثَّقافاتِ الأجنبيةِ، فكانَ لا بُدَّ لـهم مِـنَ التَّأثُّـر والتَّـأثير، فأخـذوا وأَعطوا؛ لأنَّ الـحضارةَ آخذة بأسبابِ التَّقدّم في ميادين الـمعرفةِ الـمختلفة. لكنَّ العربَ تصرَّفوا بـما أخذوه مِنَ اللُّغاتِ الأُخرى، فكثير مِنَ الألفاظِ الـمعرَّبةِ لـم تكنْ هذهِ هَيْأتـها أصواتًا وبنيةً فــي اللّغةِ التـــي انـحدرتْ منها، إذ لـم يبقَ الـجانبُ الصّوتي ُّ فيـها مـحافظًا علــــى هيأتهِ القديـمةِ؛ لأنَّ العربيةَ تـمسكتْ بـمـــا لديها مِنَ الأصواتِ، ولـم تشأ أنْ تضيفَ إليها صوتًا جديدًا غيرَ مألوفٍ فيها؛ لذلك طرأتْ على كثيرٍ مِنْ أصواتِ الكلماتِ الأعجميةِ تغييراتٌ بالإبدالِ والـحذفِ والزِّيادةِ مــع مراعاةِ أصواتِ اللَّفظِ نفسهِ.

واستعملَ العربُ إلـى جانبِ الـمعرَّبِ ألفاظًا أعجميةً كما هي في لغتها الأصليةِ فلم يُغَيِّروا فيها شيئًا، وقــد أُطلِقَ عليــها اسمُ الأعجميِّ الدَّخيل، وربَّـمــا اكْتُفِيَ بتسميِتها بـــ(الدَّخيل)، فكأنَّـهم أرادوا بـهذهِ التّسميةِ استبعادَها مِنَ العربيةِ، وتـَمْيِيزَها مـمَّا هو مُعَرَّبٌ أو عربيٌّ؛ لأنَّ الـمُعَرَّبَ قد صارَ بعدَ تغييرهِ عربيًا.

غيرَ أنَّ الـمتأخرينَ مِنَ الـمؤلفينَ لـم يلتزموا بـهذا التَّمييز بين النَّوعينِ: أعني الـمعرّبَ والدّخيلَ، فأطلقوا على الـمعرَّبِ اسمَ الدّخيلِ أيضًا، عــلى نـحوِ مـا نـجدُه فـــي كتابِ شهاب الدِّين الـخفاجيّ –المتوفّى سنة1069للهجرة- الذي سـمَّاهُ: (شفاء الغَلِيلِ في ما في كلامِ العربِ مِنَ الدَّخيلِ)**.**

وقد دلَّت البحوثُ علـــى أنَّ العربَ قـــد اقترضتْ قبلَ الإسلامِ منَ اللُّغاتِ الشَّرقيَّةِ كالآراميَّةِ، والفارسيَّةِ، والـحبشيَّةِ، والعِبْـريَّةِ، والـهِنديَّةِ **(**السِّنْسِكْرِيْتِيَّة**)**، واقترضتْ أيضًا مِـنَ اليونانيـّـةِ **(**الرُّوميَّة**)**، وهذا يَدُلُّ علــى قدرةِ العربيّةِ الفائقةِ علــى استيعابِ الـجديدِ مِـنَ الألفاظِ، وهضمهِ؛ ليكونَ جزءًا منها، مُعَبِّرًا عن شؤونِ الـحياةِ الـمختلفةِ.

وليستِ العربيَّةُ بِدْعًا بينَ اللّغاتِ حينَ أَفادتْ مِنْ ظاهرةِ الإبدالِ لتعريبِ اللَّفظِ، فقد صنعَ الفُرْسُ صَنِيْعَ العربِ حينَ لـم يـجدوا بينَ أصواتِ لغتِهم **(**العينَ، والغينَ، والحاءَ، والقافَ، والطّاءَ، والظّاءَ، والصّادَ، والضّادَ، والذّالَ، والثّاءَ**)**، فإذا اضطروا إلـــى أنْ يتكلَّموا بكلمةٍ عربيّةٍ أو مُعَرَّبَةٍ في بِنْيَتها حرفٌ مـــن هذهِ الـحروفِ أبدلوا ذلكَ الـحرفَ بـحرفٍ قريبٍ منهُ فــــي الـمخرجِ، كما في إبدالِ الـحاءِ هاءً**،** فقالوا: في **(**مُـحَمَّد**) (**مُـهَمَّد**).**

ومِنَ الأمثلةِ على التَّعريبِ بالاعتماد على الإبدالِ كلمة **(**الـجَوْز**)** التي كانَت تُنطقُ **(**كَوز**)**، ويبدو أنَّـهم كانوا ينطقونَـها بصوتٍ بينَ (الـجيم والكافِ)، أي: الصَّوت الـمماثل لصوت **(**G**)** فـــي اللُّغةِ الإنـكليزيّة، لذلكَ أحدثتِ العربُ فـــي هذا اللَّفظِ تغييرًا، فأبدلوا الكَاف جيمًا**،** فتحوَّلَ لفظُ كَوز إلى جوز**.**

ومنَ الأمثلةِ على ذلك أيضًا كلمةُ **(**مُهَنْدِس**)** التي كانت في الأصلِ عندَ الأعاجمِ **(**مُهَنْدِز**)،** فأبدلتِ العربُ الزَّايَ سينًا؛ لأنَّهُ ليسَ في كلام العربِ على ما ذكرَ اللّغويّونَ زايٌ بعدَ دالٍ**.**

وهناكَ عَلائِمُ وسـماتٌ وضعها اللّغويّونَ؛ لتمييزِ اللّفظِ الـمُعَرَّبِ والدَّخيلِ مِنَ اللَّفظِ العربيِّ، وهي:

1-إذا خلا اللَّفظُ الرُّباعيُّ والـخماسيُّ منَ (لام، أو راء، أو نون، أو فاء، أو باء) فإنَّ هذا اللَّفظَ يُعَدُّ دخيلًا، كما في (العَسْجَد).

2-إذا كان اللّفظُ فيه نون بعدها راء فهوَ مُعَرَّبٌ، مثل: (النَّرْجِس)، و(الــنَّــرْد).

3-إذا اجتمعت الـجيمُ والقافُ في كلمةٍ، فإنَّ هذهِ الكلمةَ تُعَدُّ مُعَرَّبَةً، كما في (الجـَوالِق).

4-إذا اجتمعتْ صادٌ وجيمٌ في كلمةٍ، فإنَّ هذهِ الكلمةَ تُعَدُّ مُعَرَّبَةً، كما في (الـجُصّ)، و(الصَّوْلَـجان).

5-إذا اجتمعت الطَّاءُ مع الـجيمِ في كلمةٍ، فإنَّ هذهِ الكلمةَ تُعَدُّ مُعَرَّبَةً، كما في (طاجن).

6-إذا اجتمعت الباءُ والسِّينُ والتَّاءُ في كلمةٍ، فإنَّ هذهِ الكلمةَ تُعَدُّ مُعَرَّبَةً، كما في (البُسْتَان)، و(البَسْــتُوْقَة).

7-إذا خرجت الكلمةُ عنِ الأوزانِ العربيّةِ، فإنَّ هذهِ الكلمةَ تُعَدُّ مُعَرَّبَةً،كما في (إكْسِيْر)، و(إنْـجِيْل).

ولعلَّ أبرزَ الـخلافاتِ في ظاهرةِ التَّعريبِ يُظْهِرُهُ الكلامُ الذي يَتَّصلُ منها بالقرآنِ الكريـمِ، إذ اختلفَ اللُّغويّونَ والـمفسِّرونَ في قضيةِ وقوعِ الـمعرَّبِ في القرآن الكريـمِ، على ثلاثة طوائف:

1-الطّائفة الأولى: ومنهم الشَّافعيُّ -المتوفّى سنة204للهجرة-، وأبو عبيدةَ-المتوفّى سنة210للهجرة-، والطَّبَرِيُّ -المتوفّى سنة310للهجرة-، وابنُ فارسٍ -المتوفّى سنة 395للهجرة-، وغيرهم، فقد ذهبَ هؤلاء إلى إنكارِ وقوعِ الـمُعَرَّبِ في القرآنِ الكريـمِ؛ تنزيهًا له مِنَ اللَّفظِ الأعجميِّ، مـحتجّين بقولهِ تعالى: ((إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ))[يوسف2]، وقوله تعالى: **((**بِلِسَانٍ عَــرَبــِـيٍّ مُبِينٍ**))**[الشّعراء195]، وقوله تعالى: **((**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبـِيٌّ**)) [**فصلت44].

قالَ أبو عبيدةَ في كتابهِ (مـجاز القرآن): "إنَّما أُنزِلَ القرآنُ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، فمَنْ زَعَمَ أنّ فيهِ غيرَ العربــيّةِ فقد أَعْظَمَ القولَ، وَمنْ زعمَ أنَّ كّذا بالنَّبطِيَّةِ فقد أكْبَرَ القولَ".

وتابعه ابنُ فارسٍ ذاهبًا إلى أنَّ "القرآن لو كانَ فيه مِنْ غيرِ لغةِ العرب شيءٌ لَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أنَّ العربَ إنَّما عَجَزَتْ عنِ الإتيانِ بمثلهِ؛ لأنَّهُ أتى بلغاتٍ لا يعرفونـها، وفي ذلك ما فيه، فلا يَظُنُّ ظانٌّ أنَّ فيهِ تَعجيزًا لا إعجازًا".

ويَعُدُّ هؤلاءِ الألفاظَ القرآنيّةَ الـمنسوبةَ إلى لغاتٍ أُخرى من بابِ اتفاقِ اللُّغاتِ، أي: مـمَّا وافقَ الأعجميُّ العربيّ.

2-الطّائفة الثّانية: ومنهم الثّعالبيُّ –المتوفّى سنة429للهجرة-، والسّيوطيّ-المتوفّى سنة911للهجرة-، وغيرهـما، فقد ذهب هؤلاء إلى القول بوقوع الـمعرب في القرآن الكريـم، ولا يُعَدُّ هذا الأمر كما يرون مطعنًا على كتاب الله العزيز"؛ لأنّ "في القرآن من كل لسان"، فقد نقل الثَّعالبيّ عن بعضهم أنه "ليس لغة في الدُّنيا إلاَّ وهي في القرآن".

ويبدو أنَّ السّيوطيّ من أنصار هذهِ الطَّائفة، فقد عَلَّقَ على هذا الكلام بقوله "فهذا إشارَة إلى أنَّ حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنّهُ حوى علوم الأوَّلين والآخِرِين ونبأ كلّ شيء".

واعتذرت هذه الطّائفة بأنَّ العربيّة واسعة وأنّ كلمات قليلة من غيرها في القرآن الكريـم لا تـخرجه عن كونه عربيًّا مُبِيْنًا.

3-الطائفة الثالثة:ومنهم أبو عبيد -المتوفّى سنة224للهجرة-، والـجواليقيّ-المتوفّى سنة540للهجرة-، وابن الـجوزيّ -المتوفّى سنة579للهجرة-، وغيرهم.

وقد حاولت هذه الطّائفة مِن العلماء التي يقف علـــى رأسها أبو عبيد القاسم بن سلام التّوفيق بين الرّأيين الـمتقدِّمين، يقول أبو عبيد: "والصّواب مِن ذلك عندي -والله أعلم- مذهب فيه تصديق القولين جـميعًا، وذلك أنّ هذه الـحروف أُصولـها أعجميّة كما قال الفقهاء، إلَّا أنّـها سقطت إلى العرب فأَعْرَبَتْها بألسنتها، وحوَّلتها عن ألفاظ العجم إلــى ألفاظها، فصارت عربيّة، ثـمّ نزل القرآن، وقد اختلطت هذه الـحروف بكلام العرب، فَمَنْ قال: إنّـها عربية، فهو صادق، ومَنْ قال: أعجميّة فهو صادق". ومالَ إلى هذا القول الـجواليقيّ، وابن الـجوزيّ، وآخرون.

ولـم يكن بعض علماء العربيّة مـحقّين في القول بتعريب طائفة من الألفاظ في القرآن الكريـم، من ذلك ما ذكره عِكْرِمة -المتوفّى سنة105للهجرة- بأنَّ لفظ (حَصَب) بالـحبشيّة في قوله تعالى: ((إِنَّــكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ))[الانبياء98].

إنَّ القول بـحبشيّة **(**حصب**)** لا يصمد أمام البحث؛ لأنّ كثيرًا مِن العلماء تـجاهل هذا القول قال الفرَّاء –المتوفّى سنة 207للهجرة-: "الـحصب في لغة أهل اليمن : الـحطب...والـحصب على لغة نـجد: ما رَمَيْتَ بهِ النَّارَ كقولِكَ: حَصَبْتُ الرَّجل".

ومَنْ ينظر إلى ما وردَ مِن اشتقاقات مادة **(**حَصَبَ**)** في كلام العرب يركن إلىردِّ قول مَنْ قال: إنَّـها أعجمية، ففي الـحديث: أنّ رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- (أَمَرَ بتحصيب الـمسجد**)،** وهو أنْ تُلْقَى فيه الـحَصْباء، وهي الـحصى الصِّغار.

وتفسير الآية: أنّ كلّ ما أَلْقَيْتَهُ في النَّار مِن كفّارٌ وأصنام فقد حَصَبْتَها بـهم، كما تقول : حَصَبْتُ الرَّجلَ بالـحصاء، إذا رميته بـها.

ومِن الأمثلة على ذلك أيضًا أنّ بعضهم قالإنَّ (كُوِّرَتْ) في قوله تعالى: ((إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ))[التّكوير1] هو بالفارسيّة، والأصل فيه (كُوْر بِيكَرْد).

والـحقّ أنَّ هذا اللَّفظعربيّ أصيل، وقد قال بعربيَّته معظم اللُّغويّين القدامى؛ لأنَّ (كُوِّرَتْ)عربيـّة، وقد وردَ هذا اللَّفظ على هيأة الفعل الـمضارع في قوله تعالى: **((**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**))**[الزّمر5]، واشتقاقه مِن التَّكوير، واللَّفّ، واللَّيّ، إي: يُدْخِل هذا على هذا، وهذا على هذا. والكَوْر في الكلام العربيّ دَوْر العمامة، وكلّ دَوْرٍ كَوْر، تقول العرب: كَارَ الرَّجُلُ العمامة، إذا أدارها على رأسه.

ومن الألفاظ التي لـم تتّفق أحكام اللُّغويّين في كونـها عربيّة أو أعجميّة **(**القِسْطاس**)** في قوله تعالى: **((**وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ**))**[الاسراء35]. ومعنى **(**القِسْطاس**)** هو الـميزان، فقد قيل: إنَّه عربيّ، مأخوذ من القِسْط، أي: العدل. وقيل: هو رُوميّ مُعَرَّب.

ومن ذلك أيضًا **(**الفِرْدَوْس**)،** ومعناه: البستان الذي فيه الكَرْم والأشجار الأخرى، والـجمع: فَرَادِيس، فقد ذهب بعض العلماء إلى أنَّه عربيّ مشتقّ من الفَرْدَسَة، وهي:السَّعَة**.** وذهب آخرون إلى أنّه منقول إلى العربـيّة وأصله روميّ.

ومن ذلك لفظ **(**جَهَنَّم**)،** فقد قال بعض اللّغويّين: إنَّه مُعَرَّب مِن **(**كَهنَّام**)** بالعبرانيّة، وقال آخرون: إنَّه عربيّ، سُـمِّيت به نار الآخرة؛ لِبُعْد قَعْرِها.

ومن ذلك لفظ **(**التَّنُّور**)،** وهـو عين مَاء معروف، وقيل: هو تَنُّور الـخابزة، وهــو عربيّ. وذهب آخرون إلى أنَّ هذا اللّفظ **–**التَّنُّور**-** قائم في لغتي العرب والفرس على لفظ واحد.

وإمّا أسباب التّعريب فيمكن أنْ نلخصها في النِّقاط الآتية:

1-التَّبادل التِّجاريّ**:** تدخل بسبب التَّبادل التّجاريّ إلى اللّغة أسماء البضائع التي يـحملها التّجار إلى الأراضي التي يذهبون إليها، فحين يستقبل النّاس هذه السّلع، يتقبّلون معها أسـماءها كما جاءت مِن مناطق ظهورها الأُولى.

2-العامل السّياسيّ والإداريّ**:** ينتشر التّعريب نتيجة للصّلات السّياسيّة والإداريّة بين الأُمم، كصلات العرب بالفرس، وصلات العرب بالرُّومان.

3-العامل العسكريّ**:** إنّ طول الاحتكاك بين الشّعوب الـمتحاربة ينقل إليها آثارًا مِن لغات الآخرين سواء أكان ذلك مِن لغات الـحلفاء أو الأعداء.

4-العمل الدِّينيّ**:** للعامل الدّينيّ أثر واضح في اقتراض العربيّة طائفة من الألفاظ الـمتعلّقة بالـمصطلحات والأفكار الدِّينيّة، كالسُّريانيّة والعبريّة، فالسُّريانية لغة الـمسحيّين، والعبريَّة لغة اليهود.

5-العامل الثّقافيّ**:** للعامل الثّقافيّ تأثير كبير في العربية، فقد انتقل إليها بسببهِ كثير من مفردات اللّغة الفارسيّة، واليونانيّة،والـحبشيّة، وغيرها.

ولابدّ من التّنبيه على أنّ اللّفظ الأعجميّعندما يأتي إلى لغة العرب فإنه لا يـخرج عن واحدة من الطّرائق الاتية**:**

الطّريقة الأولى: التّعريب**:** وفيهايعمد العربيّ إلى تغيير اللّفظ الأعجميّ؛ ليكون مطاوعًا للغة العرب، فَيُغَــيِّر في أصواته، أو بنائه، أو كليهما؛ ليوافق أصوات العربية وأبنيتها، كما في **(**آب ريزه**)** التي صارت **(**إِبْـرِيْـق**)،** وكما فــي **(**كِـلِـيْذ**)** التي صارت **(إِ**قْـلِــيْــد**).**

الطَّريقة الثّانية: إيـجاد اللّفظ البديل مِن لغة العرب**،** ويكون هذا اللّفظ مـختلفًا تـمامًا عن اللّفظ الأعجميّ، كما في كلمة **(**الـهاتف**)** بدلًا من **(**تِلِيْفون**)،** وكما في **(**قطار**)** بدلًا من **(**شـمندفير**)** أو **(**رَيْل**)،** وكما في (سيّارة) بدلًا من **(**أُوتُومُوبيل**)،** أي إنّ العربيّة بـحثت عمّا يناسب معنى اللّفظ الأعجميّ في كلامها فجاءت بالبديل الـمناسب.

الطّريقة الثّالثة: بقاء اللّفظ الأعجميّ على حاله كما في (موبايل)، و(إيركندشن)، و(فلورسن).واللَّفظ في هذه الـحالة يصيبه تغيير طفيف في أصواته، وهذا التَّغيير يكون بسبب العادات النُّطقيَّة في لغتنا.

ويُلْحَظ أنَّ ألفاظًا تتنازعها النُّقطتان الثَّانية والثّالثة، فالنّاس لـم تتطابق أحكامهم بإزاء ما ورد إليهم من ألفاظ أعجمية، فربّـمااستعملواالبديل العربيّ الـمقابل لهُ، وفي الوقت نفسه ربّـما استعمل آخرون ذلك اللّفظ نفسه كما ورد إليهم، ومن الأمثلة على ذلك **(**الـموبايل**)،** فمنهم مَن يقول: **(**مـحمول، أو جوّال**)** بإيـجاد البديل، ومنهم مَن يستعمل اللّفظ الأعجميّ كما هو، أي: **(**موبايل**).**

**\*ظاهرة الإعراب:**

اللّغات قسمان: فثمّة لغات مبنيّة، وثـمّة لغات معربة. وأكثر اللّغات في العصر الـحديث مبنيّة، مثل: الانكليزيّة، والفرنسيّة، والتّركيّة، والفارسيّة.

أمّا اللّغة العربيّة فهي لغة مُعْرَبَة، وتُعَدّ ظاهرة الإعراب مِن أبرز الظّواهر فيها، فقد ورثت العربيّة الإعراب مِن اللّغة السّاميّة الأُم، وقد كانت اللّغات السّاميّة القديـمة كلّها مُعْرَبَة، وأشار الـمستشرق الألـمانيّ نولدكه إلى أنّ النَّبط كانوا يستعملون الضَّمَّة في حالة الرَّفع، والفتحة في حالة النَّصب، والكسرة في حالة الـجرِّ. وتدلّ النّصوص في اللّغة الأكديّة -وتشمل اللّغتين البابليّة والآشوريّة- على وجود الإعراب فيها كاملًا. وذُكِر أنَّ قانون حـمورابي (1792-1750) قبل الـميلاد الـمدوّن بالبابليّة القديـمة فيه الإعراب كما هو في اللّغة العربيّة الفصحى، فالفاعل مرفوع، والـمفعول منصوب، وعلامة الرّفع الضَّمَّة، وعلامة النَّصب الفتحة، وعلامة الـجرّ الكسرة، كما في العربـيّة. ولايقتصر الأمر على ذلك بل إنّ الـمثنّى والـجمع الـمذكّر يـماثلان في الإعراب الـمثنّى والـجمع في العربيّة، فيرفع الـمثنّى بالألف، وينصب ويـجرّ بالياء، وأمّا الـجمع الـمذكر فإنّه يرفع بالواو، وينصب ويُـجرّ بالياء.

خلاصة القول أنّ اللّغة العربيّة لـم تبتدع الإعراب إنّـما ورثته من اللّغة السّاميّة الأُم، وبـمرور الزَّمن بدأت اللّغات السّاميّة الأُخرى تفقد الإعراب شيئًا فشيئًا سوى العربيّة التي احتفظت بـهذه الـخصيصة إلى وقتنا الـحاضر.

وكان النّحاة العرب قد حاولوا البحث في الإعراب، والغرض منه، وهل له هدف مـحدّد؟

معنى الإعراب لغة: الإِبانة عمَّا في النَّفس، وهو مصدر الفعل (أَعْرَبَ)، ومعنى (أَعْرَبَ): أَبان، يقال: أَعْرَبَ الرَّجل عن حاجته، أي، أَبان عنها. فالإعراب -من حيث اللَّغة-: الإبانة وتوضيح الكلام، وهذا الـمعنى اللّغوي للإعراب هو الأصل لـمعنى الإعراب في النَّحو، "فالإعراب هو: الإبانة عن الـمعاني بالألفاظ. أَلَا ترى أنَّك إذا سَـمِعت: (أَكْرَمَ سعيدٌ أَباه)، و(شَكَرَ سعيدًا أبوه) عَلِمْتَ برفع أحدهـما ونصب الآخر الفاعلَ مِن الـمفعول، ولو كان الكلام شَرْجـًا واحدًا[[3]](#footnote-3) لاسْتَبْهَم أحدهـما مِن صاحبه".

فإذا جاء الكلام غفلًا مِن الإعراب سيلتبس الأمر على السّامع، فلا يعرف الفاعل من الـمفعول، وإذا قلنا –مثلًا-: (ما أَحْسَن زيد) غفلًا مِن الإعراب سيلتبس النَّفي، والتَّعجّب، والاستفهام، ولن يعرف السّامع إلى أيّ الأُمور رمى القائل. لكنَّنا بالإعراب نقف على الـمعنى الـمراد:

فجملة (ما أَحْسَنَ زيدٌ) تفيد أنَّ زيدًا لـم يُـحسن في عمل من الأعمال، وهذا ظاهر مِن النَّفي.

وجـملة (ما أَحْسَنَ زيدًا !) فيها دلالة واضحة على التّعجّب، وهذا لـمسناه من الإعراب.

وجـملة (ما أَحْسَنُ زيدٍ ؟) تُنْبِئ من خلال حركاتـها الإعرابـيّة عن أنّ الـمتكلِّم أراد أنْ يستفهم عن أَحسن أجزاء زيد.

وقل مثل ذلك عن جـملة (مَنْ أَسعد النّاس) فهي بغير الـحركات الإعرابيـّة على الدّال من (أَسعد)، والسّين من (النّاس) لاتنبئ عن الـمراد؛ لأنّـها مـمكن أنْ تكون سؤالًا عن الشَّخص الذي أَسْعَدَ النَّاسَ، إذا ضُبِطَتْ على ما يأتي: (مَنْ أَسْعَدَ النـَّاسَ؟). ومن الـمـمكن أيضًا أنْ تكون سؤالًا عن الشَّخص الذي يكون من هؤلاء النّاس أَسْعَدَ مِن غيره.

فالإعراب إذن هو الـحركات الـمُبَيّنة لـمعاني كلّ جـملة في اللّغة، وقد جيء بالإعراب للفرق بين الـمعاني، "فإذا أخبرنا عن الاسم بـمعنى مِن الـمعاني الـمفيدة احتيج إلى الإعراب؛ ليدلّ على ذلك الـمعنى، والـحركات تُنْبِئ عن هذه الـمعاني، فحين قالوا: (ضَرَبَ زيدٌ عَمْرًا) دلُّوا برفع (زيدٌ) على أنّ الفعل له، ودلُّوا بنصب (عمرًا) على أنّ الفعل واقع به"

هذا هو قول جـميع النّحويّين إلَّا قُطْرُبًا -المتوفّى سنة206أوبعد210- فإنّه عاب عليهم هذا الاعتلال، وقال لـم يُعرب الكلام للدّلالة على الـمعاني والفرق بينها، وإنّـما أَعْرَبَت العرب كلامها؛ لأنَّ الاسم في حال الوقف يلزمه السّكون للوقف، فلو جعلوا وصله بالسُّكون أيضًا، لكان يلزمه الإسكان في الوقف والوصل، فكانوا يُبْطِئون عند الإدراج، فلمَّا وصلوا، وأمكنهم التَّحريك، جعلنا التَّحريك معاقبًا للإسكان؛ ليعتدلّ الكلام"، أي إنّ الغاية مِن الإعراب هو الـخِفَّة عند درج الكلام، وعليه فإنّ الـحركات على رأي قطرب جِيء بـها للسُّرعة في الكلام، والتَّخلّص من التقاء السّاكنين.

والـحقّ أنّ كون الإعراب عَلَمًا على الـمعاني هو الرّأي الـمقبول الواضح البيّن، إذ لو كانت الغاية منه الـخِفّة عند درج الكلام ما التزمته العرب هذا الالتزام، ومن أوضح الأُمور على هذا أنّه لو قرأَ أحد قوله تعالى: ((...أَنَّ اللهَ بريءٌ مِن الـمشركين ورسولُهُ))[التّوبة3] بـجرّ (رسولُهُ) لاختلّ الـمعنى وفسد، وقيل: إنَّ حادثة كهذه هي التي أدّت إلى وضع النَّحو، وقيل: إنّ أعرابـيًّا مرَّ فسمع مؤذنًا (أشهد أنَّ مـحمّدًا رسولَ اللهِ) بنصب (رسول) فصاح به: ويـحك، ماذا يصنع؟

ثـمّ إنّ أوّل حكايات ظهور اللّحن في زمن أبي الأسود الدُّؤليّ تدلّ على أنّ الإعراب له أثر في الـمعنى، ولا ينكر أحد أنّ قوله تعالى: ((إنّـما يـخشى اللهَ من عبادِهِ العلماءُ)) لو أبدلتَ فيه حركة (اللهَ) إلى الرّفع، وحركة (العلماءُ) إلى النَّصب لاختلّ الـمعنى وتغيّر إلى العكس تـمامًا. وأنّ جـملة (أكرم النّاس أحـمد) إذا كانت غفلًا من الـحركات الإعرابيّة احتملت معاني عدة، فإنْ شُكِّلَتْ نَصَّت على معنى واحد:

أَكْرَمَ النَّاسُ أَحـمدَ

أَكْرَمَ النَّاسَ أَحـمدُ

أَكْرِمِ النّاسَ أَحـمدُ

أَكْرَمُ النَّاسِ أَحـمدُ

وجـماع القول أنّ جـميع النّحاة القدامى عدا قطربًا يُقِرُّون بعلاقة الإعراب بالـمعنى ودلالته عليه، فهم يرون أنّ الـحركات الإعرابيّة تدلّ على الـمعاني الـمختلفة مِن فاعليّة، ومفعوليّة، وإضافة، وغيرها. وقد أشار أبو القاسم الزّجّاجيّ -المتوفّى سنة 337- للهجرة في كتابه (الإيضاح في علل النّحو) إلى "أنّ الأسـماء لـمّا كانت تَعْتَورها الـمعاني فتكون فاعلة، ومفعولة، ومضافة، ومضافًا إليها، ولـم تكن في صورها وأبنيتها أدلّة على هذه الـمعاني بل كانت مشتركة جُعِلَت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه الـمعاني، فقالوا: (ضرب زيدٌ عمرًا)، فدلُّوا برفع (زيد) على أنّ الفعل له، وبنصب (عمرو) على (أنّ) الفعل واقع به، وقالوا: (ضُرِبَ زيدٌ)، فدلّوا بتغير أوّل الفعل، ورفع (زيد) على أنّ الفعل ما لـم يُسَمّ فاعله، وأنّ الـمفعول قد ناب منابه. وقالوا (هذا غلامُ زيدٍ)، فدلّوا بـخفض (زيد) على إضافة الغلام إليه. وكذلك سائر الـمعاني جعلوا هذه الـحركات دلائل عليها؛ ليتّسعوا في كلامهم، ويقدّموا الفاعل إنْ أرادوا ذلك، أو الـمفعول عند الـحاجة إلى تقديـمه، وتكون الـحركات دالّة على الـمعاني".

**\*الـمعجمات العربيَّة:**

الـمعجمات في العربيّة نوعان رئيسان: أحدهـما معجمات الألفاظ، والآخر معجمات الـمعاني، وسنتحدث في ما يأتي عن معجمات الألفاظ، ويراد بـمعجمات الألفاظ تلك الـمعجمات التي يهرع إليها القارئ حين يصادفه لفظ لا يعرف معناه، فمعجمات اللألفاظ هي الـملجأ الذي يقصده الدَّارس والـمُدَرِّس، والعالِـم والـمُتَعلِّم إذا أَشْكَلَ عليه معنى لفظ من الألفاظ قَرَأَه أو سَـمِعَه.

ولابدّ لِـمَنْ ينشد معنى لفظ معين أنْ يعرف السُّبل التي نـهجتها معجمات الألفاظ في تأليفها وترتيب موادها؛ كي يستطيع أنْ يـجد ضالَّته بسهولة ويُسْر.

ويُطْـلَق لفظ الـمعجم على الكتب التي تُورد الألفاظ اللُّغويّة ومعانيها بـحسب منهج معيَّن تسير عليه. وقد أُخِذَت تسمية الـمعجم مِن عبارة: (حروف الـمعجم) التي أُطْلِقَت على حروف الـهجاء، ومعناها الـحروف التي يُـمَيَّز بعضها مِن بعض بالنِّقاط، ولعلّ أقدم استعمال لـهذه العبارة موجود في كتاب (الفهرست) لابن النَّديـم -المتوفّى سنة380للهجرة-، فقد نُسِب إلى حبيش بن موسى كتاب (الأغاني على حروف الـمعجم).

وثـمَّة كلمة استعملت مرادفة للمعجم وهي (القاموس)، ولعلَّها جاءت بسبب إطلاق الفيروزآبادي -المتوفّى سنة817للهجرة- على معجمه تسمية (القاموس الـمحيط)، وأراد به البحر الـمحيط باللُّغة.

**\*الـمدارس الـمعجميّة لـمعجمات الألفاظ:**

قد قسَّم الدَّارسون معجمات الألفاظ على خـمس مدارس؛ تبعًا لاختلاف مناهجها:

أوَّلًا: مدرسة العين:

يعدّ معجم العين للخليل بن أحـمد الفراهيديّ -المتوفّى سنة175للهجرة- مكتشف العروض أوَّل معجم مِن معجمات الألفاظ التي صُنِّفَتْ في العربيَّة، وقد اعتمد الـخليل في ترتيب الـموادّ اللُّغويّة في العين على ثلاثة أُسس:

أ-الأساس الأوّل: الـمخارج:

رتَّب الـخليل الـمادَّة اللُّغويَّة على حسب مـخارج الأصوات، فبدأ بالأصوات مِن الـحَلْق، ثـمَّ تَدَرَّج بـها إلى الشَّفتين، فهي مرتبة على ما يأتي: ع، ح، ه، خ، غ، ق، ك، ج، ش، ض، ص، س، ز، ط، د، ت، ظ، ذ، ث، ر، ل، ن، ف، ب، م، و، أ، ي، ء.

وقد جعل الـخليل معجمه أقسامًا على عدد الـحروف، وسـمَّى كلَّ قسم منها كتابًا، فابتدأ معجمه بــ(كتاب العين) الذي ضمَّ جـميع الكلمات التي تتضمَّن صوت العين في أيّ موضع منها، سواء أكان في مبتدأ اللَّفظ أم في حشوه، أم آخره، ثـمَّ أَتْبَعَهُ بــ(كتاب الـحاء) الذي ضمَّ جـميع الكلمات التي تتضمَّن صوت الـحاء في أيّ موضع منها، سواء أكان في مبتدأ اللَّفظ أم في حشوه، أم في آخره، لكنَّه استبعد الكلمات التي فيها عين؛ لأنّـها ذُكِرَت في كتاب العين، ثـمَّ أَتْبَعَه بــ(كتاب الـهاء) الذي ضمَّ جـميع الكلمات التي تتضمَّن صوت الـهاء في أيّ موضع منها، سواء أكان في مبتدأ اللَّفظ، أم حشوه، أم آخره.

ويُلحظ أنَّ الخليل استبعد الكلمات التي فيها عين أو حاء؛ لأنّـها ذُكِرَت في كتابي العين والـحاء. ثـمّ أَتْبَعَه بــ(كتاب الـخاء)...وهكذا حتّى استوفى سائر الـحروف.

وقد أطلق الـخليل على معجمه هذا تسمية العين مِن باب تسمية الكلّ باسم الـجزء، وهذا جارٍ في كلام العرب.

ب-الأساس الثّاني: الأبنية:

قسَّم الـخليل كلَّ كتاب على أبواب تبعًا لـهيأة الكلمات التي احتواها كلّ كتاب، فَجَعَلَ الأبواب ستة على الترتيب الآتي:

1. باب الثّنائيّ الصّحيح الـمُضَعَّف، مثل: عَفَّ
2. باب الثُّلاثيّ الصَّحيح، مثل: عَلِمَ
3. باب الثُّلاثيّ الـمعتلّ بـحرف واحد، مثل: عَوْن
4. باب الثُّلاثيّ الـمعتلّ بـحرفين (اللَّفيف)، مثل: وَعَى
5. باب الرُّباعيّ، مثل: بَعْثَرَ
6. باب الـخماسي، مثل: سَفَرْجَل

ج- الأساس الثّالث: التَّقاليب:

وهي تغيير مواقع أحرف اللَّفظ حتّى يأخذ كلٌّ منها مواقع الأحرف الـمشتركة معه في تكوين اللّفظ، وقد عَمَدَ الـخليل إلى التَّقاليب؛ ليقف على كلّ ما يـمكن أنْ يتكون من حروف الـهجاء، ومن ألفاظ مستعملة أو مهملة.

وقد انتهى إلى أنَّ للثُّنائيّ الـمضعَّف صورتين، فالدَّال والرَّاء -مثلًا- لايتكوّن منها غير (رَدَّ)، و(دَرَّ). أمَّا الثَّلاثيّ فله ستّ صور، فالعين واللَّام والباء -مثلًا- لايتكوَّن منها غير (علب)، و(عبل)، و(لعب)، و(لبع)، و(بعل)، و(بلع)، وهذه الكلمات الـخمس مستعملة عند العرب ما عدا (لبع)، فالعرب لـم تستعمل (لبع)؛ لذلك نبّه الخليل على أنّه مهمل.

وأمَّا الرُّباعيّ فتصل فيه التَّقليبات إلى أربع وعشرين صورة، وتصل في الـخماسيّ إلى مئة وعشرين صورة.

وقد جـمع الـخليل تقاليب اللَّفظ كلَّها في أسبق حرف منها في ترتيبه الـمخرجيّ، وعليه فإنّ البحث عن الألفاظ في معجم العين يتطلَّب ما يأتي:

أ-تـجريد اللّفظ من الأحرف الزَّوائد إذا كانت فيه أحرف زوائد.

ب-ترتيب أحرف اللّفظ بـحسب ترتيب الـخليل للحروف؛ لنقف على الأصل الذي ورد فيه اللَّفظ.

ت-الصُّورة التي ورد بـها اللَّفظ الـمبحوث؛ حتّى نقف على القسم الـخاصّ به، فالفعل لعب –مثلًا- يرتَّب بـحسب ترتيب الـخليل للحروف، فيكون (علب) إذ العين قبل اللَّام، واللَّام قبل الباء، ولـهذا يُبْحَث عنه في كتاب العين.

ولـمَّا كان الفعل ثلاثيًّا صحيحًا فالبحث عنه ينحصر في الفصل الـخاصّ منه بالثُّلاثيّ الذي اتصلت فيه العين باللّام مع الباء. ولكنّ اللَّفظ الـمبحوث عنه (لعب) وليس (علب)؛ لذا يُبْحَث عنه في الصُّورة أو التَّقليب الذي يُطابقه وهكذا.

وقد حَظِي كتاب العين بإعجاب العلماء بـمنهجه؛ لذلك ساروا على طريقته نفسها، فالتزموا بـخطّته التزامًا تامًّا أحيانًا بالـمعالـم الكبرى مِن خُطَّته أحيانًا أُخرى، وهذه الـمعاجم هي التي نسمّيها مدرسة العين، وهي:

1. البارع لأبي عليّ القالي -المتوفّى سنة356للهجرة-
2. تـهذيب اللُّغة للأزهريّ -المتوفّى سنة370للهجرة-
3. الـمحيط في اللّغة للصَّاحب بن عباد -المتوفّى سنة385للهجرة-
4. الـمحكم والـمحيط الأعظم لابن سيده -المتوفّى سنة458للهجرة-

ثانيًا: مدرسة الـجمهرة:

سُـميت هذا الـمدرسة الـمعجميّة الثَّانية بـهذه التَّسمية نسبة لـمعجم جـمهرة اللُّغة لابن دريد -المتوفّى سنة321للهجرة- الذي علَّل هذه التَّسمية بقوله: "وإنَّـما أعرناه هذا الاسم؛ لأنَّا اخترنا له الـجمهور مِن كلام العرب، وأرجأنا الوحشيّ والـمستنكَر".

واستقلَّ ابن دريد بـمعجمه عن مدرسة العين باتّـخاذ الأبنية أساسًا لتقسيم كتابه، فقسَّمه إلى أربعة أقسام رئيسة، وجعل كلَّ قسم منها لبناء خاصّ، وهي:

1. الثُّنائي الصَّحيح الـمدغم
2. الثُّلاثي الصّحيح
3. الرُّباعي
4. الـخماسيّ

واختلف عن منهج الـخليل باتّـخاذه النِّظام الألفبائيّ أساسًا لترتيب بالألفاظ داخل كلّ بناء، وبـهذا أعرض عن التَّرتيب الصَّوتيّ للعين للحروف الذي سارت عليه مدرسة العين، والتزم ابن دريد في معجمه جـمهرة اللّغة بنظام التَّقاليب الذي ابتدعه الـخليل في العين.

ولـمَّا كان البحث عن اللَّفظ في معجم جـمهرة اللّغة صعبًا ويستنفد وقتًا عمد ناشر الـمعجم كرنكو إلى صنع فهارس رتَّب فيها الألفاظ هجائيًّا كما في الـمعجمات الـحديثة؛ ليسهل الرُّجوع إليه.

ثالثًا: مدرسة مقاييس اللّغة:

سُـمّيت هذه الـمدرسة بـهذه التَّسمية نسبة إلى معجم مقاييس اللُّغة لابن فارس -المتوفّى سنة395للهجرة-. وقد استقلّ ابن فارس في تقسيم معحمه بترتيب خاصّ عمد فيه إلى التّرتيب الـهجائيّ للحروف، وخصَّ كلَّ حرف منها بكتاب، فبدأ بكتاب الـهمزة، وأَعْقَبَه بكتاب الباء، فكتاب التّاء، فكتاب الثَّاء...حتَّى انتهى منها جـميعًا، وهو بـهذا يـخالف مدرسة العين التي اعتمدت على التَّرتيب الصَّوتيّ للحروف، وخالف مدرسة جـمهرة اللّغة التي اعتمدت على الأبنية في التَّقسيم الرَّئيس للمعجم، وخالف الـمدرستين كلتيهما في أخذهـما بنظام التَّقاليب، فقد أعرض عنه إعراضًا تامًّا.

وبعد أنْ قسَّم ابن فارس كتابه بـحسب حروف الـهجاء عددًا وترتيبًا قسَّم كلَّ كتاب، أو كلَّ حرف على ثلاثة أبواب:

أوّلـها للثّنائيّ الـمضعف.

وثانيها للثّلاثيّ.

وثالثها لـما زاد على الثُّلاثيّ.

ومـمّا تـميّز به معجم مقاييس اللّغة من سائر الـمعجمات أنّ ابن فارس ألزم نفسه بأخذ الـحرف مع ما تلاه مِن موادّ تلك الأبنية حتّى إذا فرغ مِن كلّ ما تلاه أخذه مع سابقه، فصار السَّابق عنده لاحقًا، واللَّاحق سابقًا، ففي الثُّنائيّ الـمضعّف مِن كتاب الـجيم -مثلًا- يستهلّ الـمضعّف بكلمة (جَحَّ، وبعدها (جَخَّ)، ثـمَّ (جَدَّ)، ثـمَّ (جَرَّ)، ثـمّ (جَذَّ)، ثـمَّ (جَزَّ)، (جَسَّ)...حتّى ينتهي إلى (جَوَّ)، وعندئذ يعود مِن جديد لاستيفاء الـحروف السَّابقة للجيم، فيذكر بعد (جَوَّ) (جَأّ)، و(جَبَّ)، و(جَثَّ).

ولابن فارس معجم آخر سـمَّاه (مُـجْمَل اللُّغة) قصد فيه إلى الاختصار والإيـجاز، قال في مقدّمته: "وسـمّيته (مُـجْمَل اللُّغة)؛ لأنّي أجـملتُ الكلامَ فيه إجـمالًا".

وقد اتَّبعَ ابن فارس في (مُـجْمَل اللُّغة) الـمنهج عينه الذي اتّبعه في (مقاييس اللُّغة).

رابعًا: مدرسة الصِّحاح:

سُـمّيت هذه الـمدرسة بـهذا الاسم نسبة إلى معجم (تاج اللُّغة وصحاح العربيّة) للجوهريّ -المتوفّى سنة400للهحرة تقريبًا-.

وقد انتخب له الـجوهريّ هذا الاسم؛ لاقتصاره فيه على ما صحَّ عنده فيه مِن ألفاظ اللُّغة. واختطَّ الـجوهريّ للصّحاح منهجًا خاصًّا أَعْرَضَ فيه عن التَّرتيب الصَّوتيّ لـمخارج الـحروف، وأَعْرَضَ فيه عن نظام الأبنية والتَّقاليب، وآثَرَ ترتيب ألفاظه على النِّظام الـهجائيّ للحروف، لكنَّه طبَّق التَّرتيب الـهجائيَّ أوَّل ما طبَّقه على أواخر الألفاظ، ثـمّ على أوّلـها، وعلى ما تلا الـحروف الأُولى، حتَّى أتى على حروفها كافَّة، فقد قسَّم الـجوهريّ معجمه إلى ثـمانية وعشرين حرفًا، وجعل لكلّ حرف مِن حروف الـهجاء بابًا منها، إلَّا أنَّه جـمع الواو والياء في باب واحد؛ لأنَّـهما كثيرًا ما ينقلبان ألفا، وأودع في كل باب جـميع الألفاظ الـمنتهية بـحرفه. فالباب في منهج الـجوهريّ يشير إلى الـحرف الأخير مِن اللَّفظ، وبـهذا سُـمّي هذا النِّظام بنظام القافية، وقسَّم كلَّ باب إلى ثـمانية وعشرين فصلًا، مشيرًا بـهذه الفصول إلى أوائل حروف الألقاظ، فباب الباء فصل الـهمزة ضمّ جـميع الألفاظ الـمنتهية بالباء، والـمبدوءة بالـهمزة أيًّا كانت بنية هذه الألفاظ.

ورتَّب مواد كلَّ فصل مِن هذه الفصول بـحسب أسبقيَّته ما بين الـحرفين الأوَّل والأخير منها في التَّرتيب الـهجائيّ أيضًا، وعليه فإنَّ البحث عن اللَّفظ في هذه الـمدرسة الـمعجميّة يتطلَّب معرفة الـحرف الأخير منه؛ لـمعرفة بابه، ويتطلَّب معرفة الـحرف الأوَّل منه؛ لـمعرفة الفصل الذي تضمَّنه مِن ذلك الباب، وتُنْظر بعد هذا بقيّة أحرفه بـحسب تتاليها؛ لتحديد موضعه مِن الفصل، فكلمة (ضرب) نـجدها في باب الباء فصل الضَّاد بعد كلمة (ضبب)؛ لأنَّ فصل الضَّاد في باب الباء فيه الألفاظ (ضبب)، و(ضرب)، و(ضغب)، و(ضوب)، و(ضهب).

ولابدَّ مِن الإشارة إلى أنَّ الـجوهريّ قدَّم حرف الواو على الـهاء في معجمه.

وقد أَقبل اللُّغويّون على كتاب الصّحاح مكمّلين، وناقدين، ومستدركين، ومختصرين، ومن هذه الكتب:

1 – التّنبيه والإيضاح عـمّا وقع في الصِّحاح لابن بري-المتوفّى سنة 582للهجرة-

2 – التَّكملة والذَيل والصِّلة للصَّغانيّ -المتوفّى سنة 650للهجرة-

3 – مختار الصِّحاح للرّازيّ -المتوفّى بعد سنة 666للهجرة-

وتنتمي إلى مدرسة الصِّحاح مـجموعة مِن الـمعجمات سار فيها مصنّفوها على النَّهج نفسه الذي اختطَّه الـجوهريّ، وهي:

1. العُباب للصَّغانيّ -المتوفّى سنة650للهجرة-
2. لسان العرب لابن منظور -المتوفّى سنة711للهجرة-
3. القاموس الـمحيط للفيروز آباديّ -المتوفّى سنة817للهجرة-
4. تاج العروس لـمحمد مرتضى الزَّبيديّ -المتوفّى سنة1205للهجرة-

خامسًا: مدرسة الأساس:

سُـميت هذه الـمدرسة الـمعجميّة بـهذا الاسم؛ نسبة إلى معجم أساس البلاغة للزَّمـخشريّ -المتوفّى سنة538للهجرة- الذي سار على التَّرتيب الـهجائيّ للحروف على أساس أوَّل اللَّفظ بدلًا مِن آخره، مع بقائه في ضمن النِّظام الـهجائيّ.

جعل الزَّمـخشريّ معجمه في ثـمانية وعشرين بابًا، أي إنَّه جعل كلَّ حرف في الباب، اسماه كتابا فالكتاب الأوَّل كتاب الـهمزة، وفيه الألفاظ الـمبدوءة بالـهمزة، ويليه كتاب الباء، فكتاب التّاء، فكتاب الثاء...حتّى يستوفي جميع الـحروف، وهو يراعي هذا التَّرتيب داخل كلّ باب في ثوانـي الكلمات وثوالثها، معتمدًا على حروفها الـمجرَّدة، فالكلمات تتعاقب في باب العين -مثلًا- على الوجه الآتي: (عبأ)، و(عبب)، و(عبث)، و(عبد).

ولابدّ من التّنبيه على أمر مهمّ، وهو أنّ الزَّمحشريّ لـم يكن هـمّـه استقصاء الألفاظ ومعانيها اللُّغويّة، وإنَّـما انـحصر هـمّه في اقتناص العبارات الأدبيّة البليغة مِن آيات، وأحاديث، وأشعار، وأمثال، والوقوف مِن خلالـها على معاني الألفاظ واستعمالاتـها، مبتدئًا بالـحقيقة، ثـمَّ الدَّلالات الـمجازيّة.

وعلى هذا نلحظ أنّ ثـمّة موادّ ساقطة مِن معجمه؛ لأنّـها لاتدخل في نطاق منهجه، ولا تنسجم مع الفكرة العامَّة التي بنى عليها معجمه مِن حيث احتواؤه على الـحقيقة والـمجاز معًا.

وتُعَدّ طريقة هذه الـمدرسة الـمعجميّة أيسر الطَّرائق للبحث عن الألفاظ في الـمعجمات.

وهناك معجمات كثيرة سارت على طريقة معجم أساس البلاغة، نذكر منها:

1. المصباح المنير للفيومي -المتوفّى سنة 770للهجرة-
2. محيط المجيك لبطرس البستاني -المتوفّى سنة 1883للميلاد-
3. اقرب الموارد لسعيد الخوري الشرتوني -المتوفّى سنة 1913للميلاد-
4. البستان لعبد الله البستاني -المتوفّى سنة 1930للميلاد-
5. المنجد للويس معلوف -المتوفّى سنة 1947للميلاد-
6. متن اللغة للشيخ احمد رضا -المتوفّى سنة 1953للميلاد-
7. المعجم الوسيط مجمع اللغة العربيىة بالقاهرة
8. المعجم الكبير مجمع اللغة العربية بالقاهرة

ولابدّ من التَّنبيه على أنَّ الزَّمخشريّ لـم يكن أوَّل من اتّبع هذه الطَّريقة، على الرَّغم من شهرة نسبتها إليه؛ لأنّ الفكرة كانت قد بدأت عند أبي عمرو الشّيباني-المتوفّى سنة 208للهجرة تقريبًا- في معجمه (الـجيم)، إذ رتَّبه على النَّسق الـمعروف في التَّرتيب الهجائي مع النَّظر إلى الـحرف الأوّل، ولكنّه لـم يكن ملتزمًا بترتيب الـحروف الثواني فالثّوالث.

**\*معجمات الـمعاني:**

هي الـمعجمات التي اتبعت نظام التَّرتيب الـموضوعيّ وتـمثّل نوعًا آخر من الـمعجمات، فهي غير معجمات الألفاظ التي تقدَّم ذكرها. ويقوم هذا الضَّرب من التَّأليف على جـمع ألفاظ اللُّغة وتدوينها بـحسب معانيها لا بـحسب أصولـها وحروفها، فثمَّة كتاب في خَلْق الإنسان، وآخر في الأنواء، وآخر في الـخيل، وآخر في البئر، وآخر في الأشربة، وآخر في النَّخلة...وغيرها من الـموضوعات التي يضمّها معجم واحد من معجمات الـمعاني، ونذكر في ما يأتي طائفة من معجمات الـمعاني:

1. الغريب الـمصنَّف لأبي عبيد القاسم بن سلام -المتوفّى سنة 224للهجرة-
2. الألفاظ الكتابيَّة لعبد الرحمن الـهمدانيّ -المتوفّى سنة للهجرة-
3. جواهر الألفاظ لقُدامة بن جعفر -المتوفّى سنة 337للهجرة-
4. مُتَخَيَّر الألفاظ لابن فارس-المتوفّى سنة 395للهجرة-
5. التَّلخيص في معرفة أسـماء الأشياء لأبي هلال العسكريّ-المتوفّى سنة 395للهجرة-
6. مبادئ اللغة للإسكافيّ -المتوفّى سنة 421للهجرة-
7. فقه اللُّغة وسرّ العربيّة للثَّعالبيّ –المتوفّى سنة 429للهجرة-
8. الـمخصَّص لابن سيده -المتوفّى سنة 458للهجرة-
9. نظام الغريب للرَّبعيّ -المتوفّى سنة 480للهجرة-
10. كفاية الـمُتَحَفِّظ ونـهاية الـمُتلفِّظ لابن الأجدابيّ -المتوفّى في القرن السّادس للهجرة-
11. غاية الإحسان في خَلق الإنسان للسّيوطيّ -المتوفّى سنة 911للهجرة-

ومن هذا الكتاب الأخير نقتطع النَّصَّ الآتي؛ لتقريب صورة معجمات الـمعاني إلى الأذهان: "جاء في (باب أسـماء جـملة الإنسان): "...مِن أسـماء الصَّغير إلى منتهى الكبر: غلام طِقْل، والأُنثى طِقْلة. ثـمَّ هو شَدَخ ما دام رَطْبًا، ثـمَّ جَفْر. فإذا قُطِع عنه اللَّبَن فهو فطيم. ثـمَّ جَحُوش، وهو صَبِيّ مادام يرضع. فإذا ارتفع ولـم يبلغ الـحُلُم فهو يافع، فإذا قارَبَ الـحُلُم فهو مراهق وكَوْكَب. فإذا شُكَّ في احتلامه فهم مُـحْلِف. وغلام رُعْرًع. ثـمَّ هو ناشئ. فإذا خَرَجَ شعرُ وحهِهِ فهو طارٌّ. ثـمَّ هو شاب، وفتى إلى أنْ يـجتمع. فإذا لـم يكن في شعر وجهه مزيد، وشَابَ بعضَ الشَّيب فهو مُـجْتَمِع. فإذا بَلَغ أقصى الكُهُولة فهو صَتْم، ثـمَّ صُمُل. فإذا استبانت فيه السِّنّ فهو شيخ، ثـمَّ هو مُسِنٌّ، ونَـهْثَل، ونَـهْبَل، وخَنْشَل. فإذا قارب الـخَطْوَ فهو دالِف. ثـمَّ هو هِمّ بَيِّن الـهمامة. فإذا ذهب عقله فهو خَرِف".

**\*العنعنة:**

هي إبدال الـهمزة عينًا، وتُنسب إلى تـميم.

وعُزيت العنعنة إلى قيس وأسد أيضًا، فهم يُبدلون هـمزة (أَنَّ) الـمفتوحة عينًا؛ لذلك سُـمّيت عنعنة؛ لكثرة قولهم: (عنَّ) بدلًا من (أَنَّ).

ومن الأمثلة على العنعنة أنّـهم يقولون: (نشهد عنَّك رسولُ الله) بدلًا من (نشهد أَنَّك رسولُ الله)، ومن أمثلتها أيضًا ما جاء في حديث الـمرأة الـمهاجرة التي باتت عند أُخت لـها: (فبينما أنا عندها ليلةً تَـحْسَبُ عنِّي نائمة، إذ دخل عليها زوجها...)، أي: (تَـحْسَبُ أَنِّي نائمة).

وعلى هذه الظّاهرة اللّهجيّة جاء قول ذي الـرُّمَّـة:

أَعَنْ تَرَسَّـمْتَ مِنْ خرقاءَ منزلةً ماءُ الصَّبابةِ مِن عينيكَ مَسْجومُ

أي: أَ أَنْ.

وكان الفرّاء -المتوفّى سنة207للهجرة- قد قيَّد هذا الإبدال بـهمزة (أَنَّ) الـمفتوحة، فقال: "لغة قريش ومَن جاورهم (أَنَّ). وتـميم، وقيس، وأسد، ومَنْ جاورهم يـجعلون ألف (أَنَّ) إذا كانت مفتوحة عينًا، يقولون: (أَشْهَدُ عَنَّك رسولُ الله)، فإذا كسروا رجعوا إلى الألف".

ويلحظ أنَّ العنعنة تكون بإبدال همزة (أَنَّ) الـمفتوحة عينًا، سواء أكانت (أَنَّ) مشدّدة أم مـخفّفة.

ويبدو أَنّ هذا الإبدال لـم ينحصر عند التَّميميّين في همزة (أَنَّ) الـمفتوحة، بل تعدّاه إلى ألفاظ أُخرى، قال ابن دُرَيد -المتوفى سنة321للهجرة-: "خَبَعَ الرَّجلُ في الـمكان إذا دخل فيه، وأحسَبُ أنَّ هذه العين هـمزة؛ لأنَّ بني تـميم يـحقّقون الـهمزة، فيجعلونـها عينًا، فيقولون: (هذا خِباعُنا)، يريدون: (خِباؤُنا)".

ومسوّغ هذا الإبدال أنَّ العين قريبة من الـهمزة مـخرجًا، وهكذا جعلوا صوتًا مـجهورًا هو العين مكان صوت لا هو مهموس ولا هو مـجهور، وهو الـهمزة. والـجهر أوضح في السَّمع؛ لذلك لـجأت إليه تـميم، وأسدـ وقيس.

ولعلّ ما نسمعه من بعض العامّة -في العراق- في إبدالـهم الـهمزة عينًا في (القراعة) و(القرعان) يريدون: القراءة والقرآن هو انـحدار لـهذه الظَّاهرة اللّهجيّة القديـمة.

وتعدّ العنعنة على رأي اللغويّين القدامى من اللّـهجات الـمذمومة، وقد خلا منها التَّنزيل العزيز، فهي على رأي اللّغويّين القدامى أقلّ فصاحة من الـهمز، قال أبو بكر بن الأنباريّ -المتوفّى سنة328للهجرة-: "فصحاء العرب أهل الـحجاز ومَنْ جاورهم يقولون: (أَشهد أَنَّ مـحمّدًا رسول الله، وجـماعة من العرب يبدلون من الألف عينًا".

**\*الفـحفحة:**

هي إبدال الـحاء عينًا، وهي لـهجة هذيل، يقولون: (اللّعم الأعمر أعسن مِن اللّعم الأبيض)، يريدون: (اللّحم الأحـمر أحسن مِن اللّحم الأبيض)، فقد كانوا يُفضّلون لـحم الإبل على غيره.

وقرأ عبد الله بن مسعود وكان من هذيل: ((ثـمَّ بَدَا لـهم مِن بَعْدِ ما رَأَوُا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ عتّى حين)) بدلًا من ((ثـمَّ بَدَا لـهم مِن بَعْدِ ما رَأَوُا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حتّى حين))[يوسف35]، ورُوي أنّ عمر بن الـخطّاب سَـمِع رجلًا يقرأ بـهذه القراءة، فقال له: مَنْ أَقْرَأكَ؟ قال: ابنُ مسعود. فكتب إلى عبدالله بن مسعود: (إنَّ الله -عزّ وجلّ- أَنزل هذا القرآنَ فـجعله عربيًّا، وأنزله بلغة قريش، فأَقْرِئ النَّاس بلغة قريش، ولا تُقْرِئْهُم بلغة هُذيل).

والـمراد بقوله: (أنزله بلغة قريش) الغالب؛ لأنَّ في القرآن الكريـم مِن لـهجات العرب غير لـهجة قريش.

ولعلّ نـهي ابن مسعود عن إقراء النّاس بلغة هذيل يرجع إلى كونه قادرًا مِن ناحية الأداء الصّوتيّ أنْ يُقْرِئَهم على اللّغة الـمُوحّدة (الـمشتركة) التي نزل بـها القرآن، إذ يـمكنه إخراج الـحاء من مـخرجه عندما يقرأ: (حتّى) كما يؤدّيه غيره من الصّحابة مِـمّن هم مِن غير قبيلة هذيل.

وقد جاز ذلك في حينه على وجه الرُّخصة للـهذليّين؛ لأنّـهم مضطرّون مِن ناحية الأداء الصّوتيّ إلى هذا الإبدال -إبدال الـحاء عينًا-، فابن مسعود وإنْ كان من هذيل لكنّه قادر على القراءة بغير لـهجة قومه، وعليه يكون متمكنًا من إقراء النّاس بذلك.

والعين والـحاء وإنْ كانا مـختلفين في الصِّفة إلّا أنّ اتفاقهما في الـمخرج سوّغ إبدال أحدهـما مِن الآخر، وكانت هذيل مِن القبائل البدويّة التي تنأى مواطنها في الصّحراء عن التّحضّر؛ لذلك مالت لـهجتها إلى العين الـمجهورة.

وكان الـخليل -المتوفّى سنة175للهجرة- يقول: "لولا بَـحَّة في الـحاء لأَشْبَهَتِ العين؛ لقرب مـخرجها مِن العين".

وذكر ابن جنيّ -المتوفّى سنة392- أنّ "العرب تبدل أحد هذين الـحرفين مِن صاحبه؛ لتقاربـهما في الـمخرج، كقولهم: (بُـحْثِر ما في القبور)، أي: بُعْثِر، و(ضَبَعتِ الـخيل)، أي: ضَبَحَتْ".

**\*الاستنطاء:**

هو قلب عين (أَعْطَى) السّاكنة نونًا حين تجيء متلوّة بالطّاء، وتُنسب إلى قبائل سعد بن بكر، وهذيل، والأزد، وقيس، والأنصار، فهؤلاء يقولون: (أَنْطَى) بدلًا من (أَعْطَى).

وقد شرّف رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- هذه اللّهجة فاستعملها غير مرّة، ففي الـحديث: (أَنّه قال لرجلِ: أَنْطِه)، أي: أَعْطِه، وفي الدُّعاء: (لا مانعَ لِـما أَنْطَيْتَ ولا مُنْطِي لِـما منعتَ)، وفي الـحديث: (اليد الـمُنْطِية خير من اليد السُّفْلى)، أي: الـمعْطية. وتُلحظ هذه الظّاهرة اللّهجيّة في قراءة الـحسن البصريّ -المتوفّى سنة110للهجرة-: ((إنَّا أَنْطَيْناكَ الكوثر))، أي: أَعْطَيْناك.

ويـمكن القول أنّ الاستنطاء لـهجة عربيّة فصيحة وردت في نصوص قديـمة عالية كالقراءات، والأحاديث، وغيرها.

وما يزال استعمال (أنْطَى) في لـهجة العراقيين حتّى اليوم، وهو شائع في نابلس بفلسطين، وعند قبيلة عنيزة في الصّحراء السُّوريّة، وفي لغة الأعراب بصحارى مصر.

ولـم يعدّ الدّرسُ الصّوتيّ الـحديث هذا من الإبدال؛ لأنَّ العين بعيدة عن النُّون مـخرجًا، وشرط الإبدال وجود تقارب بين الصَّوتين الـمبدل والـمبدل منه في الـمخرج، وهذه الفكرة ليست غائبة تـمامًا عن أذهان اللُّغويّين القدامى، فقد كان ابن جنّي -المتوفّى سنة392للهجرة- يذهب إلى أنَّ الإبدال إنّـما يقع في ما تقارب من الأصوات "وغير ذلك مـمّا تدانت مخارجه، فأمّا الـحاء فبعيدة عن الثّاء، وبينهما تفاوت يـمنع من قلب إحداهـما إلى أُختها".

وخَلُصَ الدَّرس الـمقارن إلى أنَّ (أَنْطَى) أٌدم من (أعطى)، فالنّون أصليّة في الفعل السّامي القديـم".

**\*العَجْعَجَة:**

هي إبدال الياء جيمًا عند الوقف.

وتُعزى العجعجة إلى قبيلة قضاعة، وكان سيبويه -المتوفّى سنة180للهجرة- قد علّل هذه الظّاهرة وعزاها إلى "ناس من بني سعد، فإنّهم يبدلون الـجيم مكان الياء في الوقف؛ لأنّها خفيَّة فأبدلوا من موضعها أَبين الـحروف، وذلك قولـهم: (تـميمِجٌّ)، يريدون: (تـميمِيٌّ)، وهذا (عَلِجٌّ)، يريدون: (عَلِيٌّ)".

ويُنشد اللُغويّون لِمَنْ هذه لـهجته:

خالـي عُــوَيْــفٌ وأبـو عَــــلِــــجِّ

الـمُطْعِمانِ اللَّحْــــمَ بالعَشِجِّ

وبــالــغــداةِ كِـــسَــــــــــرِ الــبَــرْنِــــــجِّ

تُـــقْــلَــعُ بالــوَدِّ[[4]](#footnote-4) وبـالـصِّــيْــصِجِّ

أراد: عَلِيّ، والعَشِيّ، والــبَـرْنــِـيّ[[5]](#footnote-5)، والصِّــيْـصِـيِّ[[6]](#footnote-6).

والعلاقة الصّوتيّة بين الـجيم والياء وثيقة من حيث الـمخرج، فقد ذكر ابن يعيش -المتوفّى سنة643للهجرة- أنَّ الـجيم تُبْدل من الياء؛ "لأنَّـهما أُختان في الـجهر والـمخرج، إلّا أنَّ الـجيم شديدة، ولولا شِدَّتُـها لكانت ياءًا، وإذا شدَّدت الياء صارت جيمًا".

خلاصة القول أنَّ هؤلاء جنحوا إلى الـجيم في الوقف؛ لأنَّـها أكثر وضوحًا في السَّمع من الياء، وهذا يعدّ مظهرًا من مظاهر البداوة التي تؤْثِر أصوات التَّفخيم، ويلحظ أنّ الانتقال هنا -في العجعجة- كان من صوت سهل وهو الياء إلى صوت أصعب منه، وهو الـجيم.

**\*الطُّمطُمانيّة:**

هي إبدال لام (ال) التّعريف ميمًا، وتُنسب إلى قبيلة حِـمْـيَر من اليـمن، وقد رُوي أن رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- نطق بـهذه اللّهـجة؛ جوابًا عن سؤال للحميريّين عن مشروعيّة الصِّيام في السَّفر، فقال: (ليس من امْبِرِ امْصِيامُ في امْسَفَر)، يريد: (ليس من البِرِّ الصِّيامُ في السَّفر).

مـمّا جاء على هذه اللَّهـجة قولـهـم: (طابَ امْضَرْبُ)، أي: طابَ الضَّربُ، بـمعنى: حلَّ القتال. وجاء عليها أيضًا قولـهم: (طابَ امْهواء)، طابَ الـهواءُ. وعلى الطُّمطُمانيّة قول الشّاعر:

ذاكَ خَـلِـيْـلِـي وذُو يُــعــاتِـبُـنِـي يـرمي ورائـي بِـامْـسَـهْـمِ وامْـسَـلَـمَـه

أي: بالسَّهم، والسَّلَمَة[[7]](#footnote-7).

ويـمكن تـخريج قول العامّة في مصر والشّام على هذه اللَّهجة، فهم يقولون: امْبارِح، يريدون: البارح.

ويركن التّفسير الصّوتي لهذا الإبدال إلى أنَّ اللّام والـميم من فصيلة الأصوات الـمتوسّطة أو الـمائعة، وهي: اللَّام، والـميم، والنُّون، والرَّاء، وهذه الأصوات يُبدل بعضها من بعضِ كثيرًا في اللّغات السّاميّة.

**\*التّلتلة:**

هي كسر حرف الـمضارعة، وذكر سيبويه -المتوفّى سنة180للهجرة- أنّ هذه الظّاهرة اللّـهجيّة تـجري على لسان "جـميع العرب إلّا أهل الـحجاز، وذلك قولـهم: أَنتَ تِعْلَمُ ذاك، وأنا إِعْلَمُ، وهي تِعْلَمُ، ونـحن نِعْلَمُ ذاك".

وعُزيت إلى بـهراء؛ لذلك قيل: (تلتلة بـهراء)، وعُزيت أيضًا إلى أسد، وقيس، وتـميم، وهذيل.

وعلى هذه اللّـهجة جاءت قراءة: ((ولاتِــرْكَــنــوا إلى الذين ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ))[[8]](#footnote-8) بكسر التّاء من (تَــرْكَــنــوا)، وقراءة ((إِيَّاك نِــعْــبُــدُ وإِيَّاك نِــسْــتَــعِــين))[[9]](#footnote-9) بكسر النُّون من (نَــعْــبُــدُ)، وكسر النّون من (نَــسْــتَــعِــين).

ونقلوا أنّ أَعرابيًّا مـمّن كانت هذه لـهجته تعلّق بأستار الكعبة، فقال: (ربِّـي اغفر، وارحم، وتـجاوز عـمَّا تِعْلَم) بكسر التّاء من (تَعْلَم).

ومن شواهد التّلتلة في الشِّعر قول أبي ذؤيب الـهُذَلـيّ:

فَــغَــبَــرْتُ بَــعْـدَهُمُ بِـعَـيْـشٍ ناصِبٍ وإِخالُ أَنّـي لاحِــقٌ مُــسْــتَــتْـبِـعُ

وقد عدَّ الدَّارسون الـمحدثون هذه الظَاهرة ظاهرة ساميّة توجد في العبريّة، والسُّريانيّة، والـحبشيّة، فكسر حرف الـمضارعة أصيل في هذه اللّـهجات ومنها العربيّة.

ويـمكن القو إنَّ التَّلتلة تتجاوز حدودها القبيلة الواحدة كبهراء؛ لأنّها موجودة في أكثر من قبيلة من قبائل العرب، ولعلّ هذا هو الذي يفسّر شيوعها اليوم في العراق، ونـجد، والـيمن، والبدو في مصر.

**\*القِطْعَة:**

هي قطع اللّفظ قبل تـمامه.

وتُعْزى القِطعة إلى قبيلة طــيِّـئ، قال الـخليل -المتوفّى سنة175للهجرة-: "القِطْعَة في طــيِّـئ كالعنعنة في تـميم، وهي أنْ يقول: (يا أبا الـحكا)، وهو يريد: (يا أبا الـحكم)، فيقطع كلامه عن إبانة بقيّة الكلمة".

وقد وردت هذه اللَّهـجة في بعض القراءات، فقد قُرِئ: ((ونادَوْا يا مالِ لِيقْضِ علينا ربُّك قال إنَّكم ماكثون)) بدلًا من ((ونادَوْا يا مالِكُ لِيقْضِ علينا ربُّك قال إنَّكم ماكثون))[الزّخرف77]. وقيل: إنّ هذا يُفَسّر على التَّرخيم.

وفي اللّهـجات العربيّة الـمعاصرة شيء من هذه الظّاهرة، فالـمصريّون -مثلًا- يقولون: (يا وَلَ)، يريدون: (يا وَلَد)، ومايشبهه موجود عند العراقيّين، فهم بقولون: (يا وَلْ) بدلًا مِن (يا وَلَد).

ومن أمثلة القِطعة في اللّهجة الـمصريّة: (النّهار طلا)، و(النّور ظها)، و(خـمدت النَّا)، يريدون: (النّهار طلع)، و(النّور ظهر)، و(خـمدت النَّار).

**\*الوتم:**

هو إبدال السين تاءًا، وعُزي إلى الـيمن، وأنشد أبو زيد الأنصاريّ -المتوفّى سنة215للهجرة- لعلباء بن أرقم:

يــا قَـــبَّــحَ اللهُ بـنـي السَّــعــلاةِ عـمـرَو بـنَ يـــربـــوعٍ شِـــرار الـــنَّـــاتِ

غــيــرَ أَعِــفّــاءٍ ولا أَكْــيـــاتِ

يريد: (النَّاسِ) بدلًا مِن (النَّاتِ)، ويريد: (أَكياسِ) بدلًا مِن (أكياتِ)، وقد نعت أبو زيد الأنصاريّ هذا الإبدال بالقبيح.

والـمسوّغ الصّوتيّ لهذا الإبدال يكـمن في كون السّين والتّاء كلاهـما مـهموس، وأنّ بينهما قربًا في الـمخرج، لكنّ التّاء شديد، والسّين رِخْو، والـميل إلى الأصوات الشّديدة من الصِّفات الصّوتيّة التي عُرفت بها القبائل البدويّة؛ لذلك مالت هذه القبائل اليمنيّة إلى هذا الإبدال، فنطقت بهذا الصّوت الشديد (التّاء) بدلًا من صوت (السّين) الرِّخْو، وقد سوغ هذا الإبدال -كما تقدّم- إتّفاقهـما بصفة الـهمس وقرب الـمخرج.

**\*الكَشْكَشَة:**

هي إبدال كاف التَّأنيث عند الوقف شينًا، أو إلـحاق الشّين بعد كاف التّأنيث.

وتُعزي الكشكشة إلى ربيعة، وإلى قبائل أُخرى كبكر بن وائل، وأسد، وتـميم، ومضر، وهوازن، وتغلب، وسليم.

ويشير سيبويه -المتوفّى سنة180للهجرة- إلى أنّ إبدال كاف التّأنيث عند الوقف شينًا كان من أجل البيان في الوقف، وبذلك تكون الشّين التي أتوا بـها فارقة للّفظ عن الـمذكّر، كقولـهم: (إِنِّشِ ذاهبة)، و(ما لَشِ ذاهبة)، أي: إِنَّكِ، ومالَكِ.

ونـبّـه الـمبرّد -المتوفّى سنة285للهجرة- على أنَّ إبدال الكاف شينًا يكون في الوقف، وأمّا إذا جاءت الكاف في درج الكلام فإنّـهم يتركونـها على حالـها.

ويبدو أنّ أمثلة هذه الظّاهرة ليست متـمحّضة للوقف، إذ ربّـما يبدل الكاف شينًا في الوصل أيضًا، قال ابن جنّي -المتوفّى سنة392للهجرة- "إنَّ مِن العرب مَن يُـجري الوصل مـجرى الوقف فيبدل فيه أيضًا"، ولعلّ ما يؤكّد ذلك أنّ قوله تعالى: ((فَنَادَاهَا مِنْ تَـحْتِهَا أَلَّا تَـحْزَنِـي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَـحْتَكِ سَرِيًّا))[مريـم24] قُرِئ: ((فَنَادَاهَا مِنْ تَـحْتِهَا أَلَّا تَـحْزَنِـي قَدْ جَعَلَ رَبُّشِ تَـحْتَشِ سَرِيًّا)).

ويُروى لـمجنون ليلى أنّه رأى ظَبْيَة، فقال:

فَـعَـيْـنَـاشِ عَـيْـنَـاهَـا وجِـيْـدُشِ جِـيْـدُهَا لَـكِـنَّ عَـظْـمَ السَّـاقِ مِـنْـشِ دَقِـيـقُ

يريد: (عَيْنَاكِ)، و(جِيْدُكِ)، و(مِنْكِ).

ومسوّغ هذا الإبدال أنّ الصَّوتين -الكاف والشّين- مشتركان بصفة الـهمس، وهما متقاربان في الـمخرج.

ومِن العرب مَن يجعل بعد الكاف شينًا –كما مرّ في التّعريف- فكأنّهم جنحوا إلى ذلك؛ من أجل يبان الكسرة، جاء في الكتاب: "وقوم يلحقون الشّين؛ ليبيّنوا بها الكسرة في الوقف...وذلك قولـهم: (أَعْـطَـيْـتُـكِــشْ)، و(أُكْـرِمُـكِــشْ)، فإذا وصلوا تركوها".

ويرى بعض الـمحدثين أنّ صوت الشّين، أو الشذين والكاف، الذي وصفه القدماء ما هو إلّا صوت مزدوج يُعَبَّر به بــ(تش)، أو (چ)، وهو معروف بالفارسيّة والتّركيّة، ويُرمز له بالإنـجليزيّة بـــ(ch) كما في كلمة: (child) ومعناها طفل، وكلمة (chicken) ومعناها دجاجة.

وهذا الصّوت موجود عندنا في لـهجتنا العراقــيّة عند مـخاطبة البنت: (شعرچ)، و(ثوبچ)، و(أعتمد عليچ)، أي: (شعركِ)، و(ثوبكِ)، و(أعتمد عليكِ).

وهو في لـهجتنا غير مقيّد بكاف الـخطاب للـمؤنّث، فهو يرد مع غيرها كما في (چَفْ)، أي: كَفْ، و(چَان)، أي: كَان، و(چَدّ)، أي: كَدّ، وغيرها كثير.

**\*الشّنشنة:**

هي إبدال الكاف شينًا مطلقًا، أي لايكون الإبدال مقيّدًا بالكاف الـمكسورة للتأنيث.

وعُزِيت الشّنشنة إلى اليمن، فقد سُـمِعَ أحدهم في عرفة يقول: (لَــبَّــيْـشَ اللّهمّ لَــبَّــيْـشَ)، أي: (لَــبَّــيْـكَ اللّهمّ لَــبَّــيْـكَ).

ونُقِل عن الفرّاء أنّه عدّ الشّنشنة من مستقبح اللّهجات.

وما يزال هذا الاستعمال ساريًا في بعض مناطق الـيمن كحضر موت وبعض مناطق ظِفار.

**\*الوكم:**

هو كسر الكاف إذا سبقتها ياء أو كسرة، فيقال: (بِكِمْ)، و(عَلَيْكِمْ) بدلًا مِن (بِكُمْ) و(عَلَيْكُمْ).

وتُتزى هذه اللّهجة إلى قبيلة ربيعة، قال الفيروزآباديّ -المتوفّى سنة817للهجرة-: "...وهم يَكِمُون الكلامَ، أي: يقولون: السّلامُ عَلَيْكِمْ -بكسر الكاف-".

وآثار هذه اللّهجة باقية عند الـموصليّين، فهم يقولون: (مِنْكِمْ).

وكان سيبويه -المتوفّى سنة180للهجرة- قد أشار إلى أنَّ ناسًا من قبيلة بكر بن وائل يـجنحون إلى هذه الظّاهرة اللّهجيّة، فهم يقولون: (من أحلامِكِمْ)، و(بِكِمْ). فكأنّ الانتقال من كسر إلى كسر أفضل عندهم من الانتقال من كسر إلى ضمّ.

ولعلّ تعليل حصول ظاهرة الوكم يرجع إلى أنّض الانتقال من حركة إلى أُخرى لا تـماثلها أثقل عليهم من الانتقال من حركة إلى أُخرى مـماثلة لـها كما في (أحلامِكِمْ)، و(بِكِمْ).

ويـمكن عدّ ما يـحصل في الوكم في ضمن ظاهرة الإتباع الـحركيّ، وعدّ ابن جنّي -المتوفّى سنة392للهجرة- الإتباع الـحركيّ من ضروب الإدغام الأصغر، الذي هو: "تقريب الـحرف مِن الـحرف وإدناؤه منه من غير إدغام يكون هناك"، قال: "ومن ذلك تقريب الصّوت من الصّوت مع حروف الـحلق، نحو: شِعِير، وبِعِير، ورِغِيف. وسـمعتُ الشَّجريّ غير مرّة يقول: زِئِير الأسد، يريد: الزَّئِير، وحكى أبو زيد عنهم: (الـجنةُ لِمَنْ خاف وِعِيد الله).

**\*الوهم:**

هو كسر هاء (هم).

يُعزى الوهم إلى قوم من ربيعة، فهم يقولون: مِنْهِم، وعَنْهِم.

وهذه الظّاهرة اللّهجيّة موجودة عند أهل الـموصل، فهم يقولون: (مِنِّمْ)، و(عِنْدِمْ)، و(كِلِّمْ)، يريدون: (منهم)، و(عندهم)، و(كلّهم).

وأصل (مِنِّمْ) هو: (مِنْهُمْ)، ثـمَّ أبدلوا الـهاء نونًا، فصارت لديهم نونان، فأدغموا إحداهما بالأُخرى، فصار اللّفظ (مِنِّمْ).

وأصل (عِنْدِمْ) هو: (عِنْدَهُمْ)، ثـمّ صارت (عِنْدَهِمْ) ثـمّ حذفوا الـهاء، وألقوا كسرتها على ما قبلها، فصار (عِنْدِمْ).

وكان سيبويه -المتوفّى سنة180للهجرة- قد وصف هذه الظّاهرة اللّهجيّة (الوهم) بالرّداءة.

تـحدّثنا في ما تقدّم عن الظّواهر اللّـهجيّة التي تتعلق بالأصوات عند طائفة من القبائل العربيّة، وسنشير الآن إلى بعض الخلاف اللّهجيّ عند القبائل العربيّة في التّراكيب:

**\*لغة أكلوني البراغيث:**

الشّائع في كلام العرب أنْ يُسند الفعل إلى ال ـمفرد سواء أكان الفاعل مفردًا، أو مثنى، أو جـمعًا، نـحو: (حضر زيدٌ)، و(حضر الزّيدان)، و(حضر الزَّيدون)، و(قامتْ هندٌ)، و(وقامتِ الـهندانِ)، و(قامتِ الـهنداتُ). وكانت طائفة من العرب تُلْـجق بالفعل علامة تدلّ على التَّثنية أو الـجمع، وهي الألف في (ضَرَباني أخواك)، والواو في (جصروا قومُك)، والنّون في (قُمْنَ الـهنداتُ).

ويرى سيبويه -المتوفّى سنة180للهجرة- أنّـهم شبَّهوا هذه الـحروف "بالتَّاء التي يُظهرونـها في (قالتْ فلانة)، وكأنّهم أرادوا أن يـجعلوا للجمع علامة كما جعلوا للمؤنّث". وقد عُرفت هذه اللّغة عند سيبويه باسم لغة أكلوني البراغيث.

وتنسب لغة أكلوني البراغيث إلى قبائل طــيِّــئ، وأزد شنوءة، وبني الـحارث بن كعب.

وفي إعراب هذا التّركيب وجوه منها:

1-أنْ يكون الضّمير الذي اتّصل بالفعل علامة للـجمع أو التّثنية، والاسم الظّاهر فاعلًا.

2-أنْ يكون الاسم الظّاهر بدلًا من الضّمير الذي اتّصل بالفعل، والضّمير هو الفاعل.

3- أنْ يكون الاسم الظّاهر مبتدأً مؤخّرًا، والضّمير الـمسند إلى الفعل هو الفاعل، والـجملة من الفعل والفاعل في مـحل رفع خبر مقدّم للمبتدأ.

وقد وردت هذه اللّغة في القرآن الكريـم، قال تعالى: ((ثُـمَّ عَـمُوا وصَمُّوا كثيرٌ منهم))[الـمائدة71]، وقال تعالى: ((وأَسَرُّوا النَّجْوى الذين ظلـموا هل هذا إلّا بشرٌ مِثْلُكم))[الأنبياء3].

ووردت في الـحديث الشّريف: (يتعاقبون فيكم ملائكةٌ باللّيل والنّـهار)، وجاء في الـحديث: (إنَّ الدَّجَّال تَلِدُهُ أُمُّهُ فَيْحْمِلْنَ النِّساءُ بالـخطَّائين)، وجاء في حديث عائشة: (كُنَّ نساءُ رسولِ اللهِ يَـحِضْنَ فأمرهُنَّ أنْ يـجْزينَ).

ووردت في الشِّعر:

يـــلـــومــونــنــي فـي اشـــــــــــــــتــراء الـــنّــخـــيــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــلِ أَهْــــلِــــــي فــــكــــلُّـــــهـــــم يـــــعــــــــذِلُ

رأينَ الغواني الشِّيب لاح بعارضي فأعْرضْنَ عَنِّي بالـخدود النَّواضر

تــولَّـى قــتــال الــمـارقــيـن بــنــفــســـــــــــــه وقـد أَسْــلَـمـــاهُ مُــبْعَــدٌ وحَـمِــيــــمُ

وذهب أبو جعفر النَّحَّاس –المتوفّى سنة338ه- إلى أنّ هذه اللّهجة ضعيفة، وعدَّها الـحريريّ -المتوفّى سنة516ه- من لـحن العامّة.

والـحقّ أنّ هذه اللّغة كثيرة في كلام العرب وأشعارهم، وقد نزل بـها الذّكر الـحكيم، ولـها شواهد كثيرة في الـحديث، ولعلّها أوسع من أنْ تنسب إلى قبيلة بعينها؛ لشيوعها في اللّهجات العربيّة، فضلًا عن اللّغات السّاميّة التي درجت على معاملة الفعل على نـحو ما جاء في (أكلوني البراغيث).

**\*إلزام الـمثنّى والأسماء السّتّة الألف:**

هي لغة الـحارث بن كعب، إذ يلزمون الـمثنّى الألف دائمًا رفعًا، ونصبًا، وجرًّا. وكان الفرّاء –المتوفّى سنة 207ه- قد نقل عن بعض بني الـحارث قوله:

فأطرقَ إطراقَ الشّجاعِ ولو يرى مساغًا لِناباهُ الشُّجاع لصمَّما

والأصا أنْ يقال: (لِنابَيْه)، فيكون اللّفظ مجرورًا بالياء؛ لأنّه مثنّى (ناب).

ونُقِلَ عن بعض بني الـحارث قوله: (خطُّ يدا أخي بعينه)، والأصل أنْ يقال: (يَدَيْ)؛ لأنّه مثنّى (يد)، وقد وقع مضافًا إليه.

ونُقِل عمّن يـجنح إلى هذا الاستعمال قولـهم: (هذا أباك)، و(رأيت أباك)، و(مررتُ بأباك)، بالألف رفعًا، ونصبًا، وجرًّا.

ومن شواهد هذه اللّغة في الشِّعر:

إنَّ أبــاهـا وأبــا أبــاهــا قد بَلَغا في الـمجد غايتاها

ومن أمثال العرب: (مُرْغَمٌ أخاك لا بطلُ)، والأصل: (أخوك)؛ لأنّه نائب فاعل لاسم الـمفعول (مُرْغَم) العامل عمل فعله الـمبني للـمجهول.

ووُجِّهت قراءة مَنْ قرأ: ((إنَّ هذانِ لساحرانِ)) -بتشديد إنَّ- على لغة بني الـحارث بن كعب في إجراء الـمثنّى بالألف دائمًا.

**\*إسناد (هَلُمَّ) إلى الضَّمائر أو عدمه:**

ثـمَّة خلاف بين أهل الـحجاز، وأهل نـجد في قضيّة إسناد (هَلُمَّ) إلى الضَّمائر. فأهل الـحجاز لايسندون (هَلُمَّ) إلى ضمير الـمثنّى، أو الـجمع، أو الـمخاطبة، فهي ترد في كلامهم بصيغة واحدة، فهم يقولون: (هَلُمَّ يا رجلانِ)، و(هَلُمَّ يا رجالُ)، و(هَلُمَّ يا نساءُ)، و(هَلُمَّ يا فاطمةُ). وعلى لغة الـحجازيّين هذه جاء التَّنزيل، قال الله تعالى: ((هَلُمَّ شُهَداءكم الذين يشهدون أنَّ الله حرَّم هذا))[ ]، وعلى هذه اللُّغة قول بلال بن رباح للنِّساء اللَّواتي حَثَّهنَ رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- على التَّصدّق: (هَلُمَّ فِدًى لَكُنَّ أبي وأمي)، فلم يقل لَـهُنَّ: هَلْمُمْنَ.

وأمَّا أهل نـجد فهم يقولون: (هَلُمَّا يا رجلانِ)، و(هَلُمُّوا يا رجالُ)، و(هَلْمُمْنَ يا نساءُ)، و(هَلُمِّي يا فاطمةُ). فهم يراعون التَّثنية، والـجمع، والتّأنيث، عند الاستعمال، فعاملوا (هَلُمَّ) معاملة الفعل الـمتصرِّف، والـهاء زائدة على مذهبهم، قال سيبويه -المتوفّى سنة180ه-: "وقد تدخل الـخفيفة والثّقيلة في (هَلُمَّ) في لغة بني تـميم؛ لأنّها عندهم بـمنزلة (رُدَّ)، و(رُدَّا)، و(رُدِّي)، و(ارْدُدْنَ)، كما تقول: (هَلُمَّ)، و(هَلُمَّا)، و(هَلُمِّي)، و(هَلْمُمْنَ)، والـهاء فضل، إنَّـما هي (ها) التي للتَّنبيه ، ولكنَّهم حذفوا الألف؛ لكثرة استعمالـهم هذا في كلامهم".

وكان الـجوهري -المتوفّى سنة400ه تقريبًا- يشير إلى أنَّ لغة الـحجازيّين في (هَلُمَّ) هي الأفصح.

**\*إعمال (ما) وإهـمالـها:**

ترد (ما) النّافية مشبّهة بـ(ليس) في كلام الـحجازيّين، فتعمل عندهم عملها، إذ يرتفع الاسم بـها، وينتصب الـخبر بها. فهم يقولون -مثلًا-: (ما مـحمدٌ قادمًا).

وترد (ما) النَّافية مـهملة عند التَّميميّين، فلا تعمل عندهم عمل (ليس)، إذ يرتفع الاسمان كلاهـما بعدها. فهم يقولون -مثلًا-: (ما مـحمدٌ قادمٌ).

وبلغة أهل الـحجاز ورد التّنزيل، قال -عزَّ وجلَّ-: ((ما هذا بشرًا)) [يوسف31]، وقال -عزّ وجلّ-: ((ما هُنَّ أُمَّـهاتِـهِم))[الـمجادلة2].

ومـمّا جاء على لغة التّميميّين قراءة الـمُفضّل عن عاصم: ((ما هُنَّ أُمَّـهاتُهُم))، وقول الشَّاعر:

لَشَتَّانَ ما أنوي وينوي بنو أبي جـميعًا فـما هذانِ مستويانِ

ويلـحظ أنّ الـخبر في قراءة الـمفضّل جاء مرفوعًا، وهو في البيت كذلك، فلو كانت (ما) عاملة فيه لَنُصِبَ، فصار (مُسْتَوِيَيْنِ).

1. النّزيب**:** صوت تيس الظّباء عند السِّفاد. [↑](#footnote-ref-1)
2. ويكون في وصف الرّطب فيقال: (هذا رطب صَقِرٌ مَقِرٌ)، إذا كان منقوعًا في عسل التّمر. [↑](#footnote-ref-2)
3. نَضْدًا واحدًا،كتركيب اللَّبِنَة جنب الأُخرى، فكلّ واحدة تُشْبِه أُختها. [↑](#footnote-ref-3)
4. الــوَدِّ: الوتد [↑](#footnote-ref-4)
5. الــبَـرْنــِـيّ: نوع من التّـمر [↑](#footnote-ref-5)
6. الصِّــيْـصِة: قَرْن البقر [↑](#footnote-ref-6)
7. السَّلَمَة: الـحجارة [↑](#footnote-ref-7)
8. هود113 [↑](#footnote-ref-8)
9. الفاتـحة5 [↑](#footnote-ref-9)